فَنُّ التَّكَلُّمِ

حُسامُ بنُ حاتِم

رُوي عن أحدِ الصَّالحينَ، أنَّهُ قال:

إذا كانَ الكلامُ في فَمِكَ ولمْ تَتفوَّه بِه فأنتَ تتحكَّمُ به، أمَّا بعدَ خروجِه مِن فَمِكَ فهُوَ المُتحكِّمُ حينَئذٍ.

مُقدِّمَةٌ لِلكتابِ

بِسمِ اللهِ الرَّحمَن الرَّحيم، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خيرِ مَن أُرسِلَ رَحمةً لِلعالمِينَ، وبعدُ؛

فإنَّ هذا الكتابَ الَّذي بين يدَيكَ، عبارة عَن بيانِ بعضِ الأساليبِ أثناءَ التَّكلُّمِ، منها أساليبُ سلبيَّة، ومِنها إيجابيَّة.

والهدفُ مِن هذا الكتابِ حُسنُ التَّعامُلِ مَعَ الغيرِ أثناءَ الحديثِ، وَقد أتيتُ معَ كُلِّ أُسلوبٍ بنصوصٍ مِن القُرآنِ الكريمِ، وَمِن كَلامِ خيرِ البشرِ _صَلواتُ ربّي وسلامُه عليهِ_ وَمِن كلامِ العُلماءِ، وبعض الأبياتِ الشِّعريَّة لا أذكُرُ قائِلَها؛ لأنَّ الهدَفَ إيصَالُ الفِكرة.

فأسألُ اللهَ العظيمَ أنْ يكونَ هذا العملُ مُفيدًا، وأسألُه تعالى القبولَ، إنَّهُ جوادٌ كريمٌ.

تَنويهٌ: أكثَرُ الأقوالِ الَّتي جمَعتُها فِي هَذا الكتابِ هِيَ لِمَنصَّةِ (الدُّررِ السَّنيَّة) فجَزى اللهُ العامِلين عَلى هَذا الموقعِ خَيرًا، وَوفَّقَهُم لِمَا يحبُّهُ وَيرضاهُ.

كَتَبهُ: حُسامُ بنُ حَاتِم

الباب الأول:

الأساليبُ السلبيَّةُ

الأُسلوبُ الأوَّلُ: (الثَّرثرةُ).

روى الترمذيُّ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «المُتَكَبِّرُونَ».

فقولُه _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ_ : (الثَّرثارونَ) دالٌّ على مَن يُكثرُ الكلامَ، فهُوَ مَنهيٌّ عنهُ.
والثَّرثرةُ لُغةً: كَثرةُ الكلامِ وترديدُه في تخليطٍ، وقد ثَرثَرَ الرَّجُلُ، فهو ثَرْثارٌ مِهذارٌ.[1]

وَقدْ رُويَ عن عُمرَ بنِ الخطَّاب _رضيَ اللهُ عنهُ_ أنَّهُ قَالَ: من كَثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مَزح استخف به، ومن أكثر من شيءٍ عُرف به، ومن كَثُر كلامُه كثر سقطُه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه.[2]

---

[1] يُنظَر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري.
[2] أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج٢٤/ص٣١٥)، وقيل إنَّ إسنادَه لا يصحُّ.

فَكم مِن ثرثارٍ كثيرِ الكلامِ خَاضَ في حديثٍ وَخرجَ مِنها بحديثٍ آخر، بحديثٍ أفضى إلى التَّنازُعِ بينَهُ وبينَ مَن يُحبُّه، وكلُّ ذلكَ كانَ عائدًا إلى كثرةِ كلامِه الَّذي لا فائدةَ منه.

وَكفى بالرَّجُلِ الثَّرثارِ زجرًا اتّباعُه لِسُنَنِ النِّساءِ.

والنِّساءُ اللَّاتي يُكثرْنَ مِن الكلامِ لا خيرَ فيهِنَّ، فإنَّ مَن لا تُضبِطُ كلامَها لا تُضبِطُ بيتًا.

وكثرةُ الكلامِ مِن شقاشقِ الشَّيطان، كما صحَّ عن عُمَرَ _رضيَ اللهُ عنهُ_ أنَّهُ قالَ: "إنَّ كثرةَ الكلامِ في الخُطَبِ مِن شقاشِقِ الشَّيطانِ"[1]

والخيرُ كلُّ الخيرِ في مَن حفِظَ لسانَه ليتَّقيَ شرَّه، وفي مَن سَلِمَ المُسلمونَ مِن لسانِه، فقدْ صحَّ عنِ النَّبيِّ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم_ أنَّهُ قالَ: المُسلمُ مَن سلِمَ المُسلِمونَ مِن لسانِه ويدِه.

وَ قد قالَ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم_ حينما سُئلَ عن أكثر ما يُدخلُ النَّاسَ النَّارَ: الفمُ والفَرْج.[2]

---

[1] أخرجه ابن وهب في ((الجامع)).
[2] خرجه الترمذي (٢٠٠٤).

وصحَّ عنهُ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم_ أنَّه قالَ لصحابيٍّ يطلبُ منه أنْ يُخبرَهُ عنِ الإسلامِ بأمرٍ لا يسألُ عنهُ أحدًا، فقال: قُل آمنتُ باللهِ ثُمَّ استقِمْ، فقالَ الصَّحابيُّ الجليلُ: فما أتَّقي؟ فأومَأَ بيدِهِ إلى لسانِه.[1]

فكيفَ النَّجاةُ؟

فِي مَن تَدبَّر قولَهُ تعالى:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾]ق[18 :

فَكلُّ مَا يخرُجُ مِن فَمِ الإنسانِ من قولٍ مَكتوبٌ، فكيفَ بِمَن يُكثِرُ كلامَه إلى أنْ يخرُجَ مِن فَمِهِ ما يكونُ مِن آفاتِ اللِّسان، واللهُ المُستعان.

قالَ الشَّاعر:

مَا ذلَّ ذُو صَمتٍ وَلا مُكثرٍ إلَّا يزلُّ وَما يُعابُ صَمُوتُ

إنْ كانَ مَنطِقُ ناطقٍ مِن فضَّةٍ فالصَّمتُ درٌّ زانَه اليَاقوتُ

..

[1] رواهُ سُفيانُ بنُ عبدِاللهِ الثَّقفيّ(صحيح مُسلم).

الأُسلوبُ الثَّاني: (التَّفيهُق).

والتَّفيهُقُ في الكلامِ: التَّوسُّع والتَّنطُّعُ.

وَقد قيلَ: تَفيهقَ علينَا بمالِ غيرِه؛ أي: تكبَّرَ[1]

وَقد جاء في الحديثِ الشَّريف المذْكور آنفًا:

عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «المُتَكَبِّرُونَ».

والتَّكبُّرُ مذمومٌ، سواءٌ أكانَ في الكلامِ، أو في غيرِه.

وأوَّلُ ذنبٍ صدرَ مِن إبليسَ الكِبْرُ، قَال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾]البقرة[34 :

...

[1] مُعجم المعاني الجامع.

وَقد أُهلِكتِ الأمَمُ السَّابقةُ بسببِ الكِبْرِ، قَال تَعالى:

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾

[نوح: 7]

وَقال:

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

[فصلت: 15]

وَيكونُ سَببًا في الإعراضِ عَن آياتِ اللهِ، قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

[سورة الجاثية: 7_8]

وَكفى بِمَن شَوَّهَ نفسَهُ بهذهِ الصِّفةِ مَا صحَّ عنِ النَّبيِّ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم_ فقَد قَال: لا يدْخُلُ الجنَّةَ مَن كَان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ.[1]

[1] أخرجه مسلم (٦٥/١).

قَال ابنُ القيّم: فَسَّرَ النَّبيُّ الكِبْرَ بضدِّهِ، فقال: الكِبرُ بطَرُ الحقِّ وَغمصُ النَّاسِ، فبطرُ الحقِّ: ردُّهُ وجحدُه، وغمصُ النَّاسِ: احتِقارُهم وازدِراؤهُم.[1]

وَقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: أَلَا أُخبرُكُم بأهلِ النَّارِ؟ كلُّ عُتُلٍّ جوَّاظٍ مُستكبِرٍ.

وَقال: ثَلاثَةٌ لا يُكلِّمُهمُ اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزكّيهم ولا ينظرُ إليهِم وَلهم عذابٌ أليم: شيخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٍ، وعائلٌ مُستَكبِرٍ.[2]

قَال بعضُ أهلِ العلمِ مُعلِّقًا على الحديثِ: فهؤلاءِ الثَّلاثةُ؛ اشتركُوا في هَذا الوعيدِ، واشتَرَكُوا في فعلِ هَذهِ الذُّنوبِ مَع ضَعفِ دواعيهِم، فإنَّ داعيةَ الزِّنا في الشَّيخِ ضَعيفةٌ، وكذلِك داعيةُ الكَذبِ في المَلِك ضَعيفةٌ؛ لاستغنائه عنْهُ وكذلك داعيةُ الكِبرِ في الفقيرِ، فإذا أَتَوا بهذهِ الذُّنوبِ مَع ضَعفِ الدَّاعي دلَّ على أنَّ في نفوسِهم مِن الشَّرِّ ما يستحقُّونَ بهِ من الوعيدِ مَا لا يَستحقُّهُ غيرُهُم.[3]

وَكفى بِمَن يُريدُ النَّجاةَ مَا صحَّ عن خيرِ مَن يصحُّ عنهُ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم_ قال: مَن ماتَ وهُوَ بريءٌ مِن ثلاثٍ: الكِبرُ، والغلُولُ، والدَّين، دخلَ الجنَّةَ.

---

[1] ((مدارج السالكين)) (٣١٨/٢).
[2] رواه مسلم (١٠٧).
[3] (مجموع الفتاوى)) (١٤/١٨).

وَقد قال الحسنُ: إنَّ أقوامًا جعلُوا الكِبرَ في قلُوبِهم، والتَّواضعَ في ثيابِهم.[1]

وَقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ: عجبًا لابنِ آدَمَ يتكبَّرُ وَقد خرجَ مِن مَجرى البولِ مرَّتين.[2]

وَقالَ سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ _رضيَ اللهُ عنْهُ_ لابنِه: "إيَّاك والكِبر، ولْيكُن فِيما تَستعينُ بهِ على تَركِه: علمُكَ بالَّذي مِنهُ كُنتَ والَّذي إليهِ تَصيرُ، وَكيفَ الكِبرُ مَعَ النُّطفةِ الَّتي مِنها خُلِقْتَ، والرَّحِمِ الَّتي مِنهَا قُذِفْتَ، والغَذاءِ الَّذي بِه غُذيتَ"[3]

وَهذا الكلامُ خَيرُ تَفسيرٍ لِمعنى الكِبرِ، وَخيرُ رادِعٍ لَه، وَخيرُ نَصيحةٍ لِمَن كان فِي قَلبهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ.

---

[1] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)).
[2] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)).
[3] ذكره ابن عبد ربه في ((العقد الفريد)).

الأُسلوبُ الثَّالثُ: (الغَضبُ).

وَالغضبُ مِن الغضبةِ؛ وهيَ الصَّخرةُ الصُّلبةُ، قالوا: ومِنهُ اشتُقَّ الغَضبُ.[1]

عَن أبي هريرةَ _رضيَ اللهُ عنهُ_ أنَّ رجلًا قالَ للنَّبيّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أوصِني، قَال: لَا تَغضَبْ، فرَدَّدَ مِرَارًا، قَال: لَا تغضَبْ.[2]

قَالَ بعضُ أهلِ العلمِ: مَعنى قولِه: لا تغضَبْ: اجتنبْ أسبابَ الغضبِ، ولَا تَتعرَّض لِما يُجلِبُه.[3]

وَالغضبُ مَذمومٌ، ويَنتجُ عَنهُ مِن الأقوالِ والأفعَالِ المَذمومةِ مَا لا ينتجُ عن غيرِه مِن الأساليب.

وَكم مِن قولٍ قِيل أثناءَ الغضبِ وَخلَّفَ أثرًا عظيمًا فِي نَفسِ مَن أُلقِيَ عليهِ ذلكَ القول، وَكم مِن فعلٍ دَنيءٍ كانَ سَببُهُ الغضبَ.

وَالغضَب قَد يُقسمُ إلى قِسمين؛

١: غَضَبٌ مَحمودٌ: وَهُوَ مَا كانَ سببُهُ اِنتهاكَ حُرُماتِ اللهِ تعالى.

---

[1] مقاييسُ اللُّغة.
[2] رواه البخاري (٦١١٦).
[3] ((فتح الباري)) لابن حجر.

فَقَد جاءَ في الحديثِ الَّذي تَرويهِ أمُّنا عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: مَا رأيتُ رسولَ اللهِ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ_ مُنتصرًا مِن مَظلَمَةٍ ظُلِمَها قَطُّ مَا لَم تُنتهك مَحارِمُ اللهِ، فإذا انْتُهِكَ مِن محارِمِ اللهِ شيءٌ كانَ أشدَّهُم في ذلِكَ غضبًا، وَما خُيّر بينَ أمرينِ إلَّا اختارَ أيسَرَهُما مَا لَم يكُن مأثَمًا.[1]

وَالغضَبُ المَحمودُ لا بُدَّ لَه أن يُضبطَ بِضوابطَ شَرعيَّة؛

فَقد قيلَ: مَا كانَ النَّبيُّ _صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ_ يغضَبُ إلَّا بِحَقٍّ، ولَا يتصرَّفُ في غَضبِه إلَّا بمُقتضى الحقِّ، وَلا ينتقِمُ لِنفسِه.

وَكَم مِن زاعمٍ زَعَم أنَّهُ غضبَ للهِ سبحانهُ وَتعالى، وَقد انتهكَ عرضَ فُلانٍ، وطَعَن في عِرضِ فُلانة، وَقد وصلَ بهِ الحالُ إلَى القدْحِ بعُلماءِ الأُمَّةِ، والعياذُ بِالله.

وَمِثلُ هَذا إنَّما يغضَبُ لِنفسِه.

٢: غَضَبٌ مَذمومٌ: وَهُوَ مَا كانَ لأمرٍ دُنيَويٍّ، وَما أكثَر مَن يتّسمُ بهذِه الصِّفة.

وَقالَ بعضُهم: لا تَغضبْ لأيِّ أمرٍ تَافِهٍ، ثُمَّ قَالَ: كُلُّ أمورِ الدُّنيا تَافِهة.

---

[1] رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

وَكفى بالمرءِ جَهلًا ظنُّهُ بِشدَّةِ مَن يغضبُ وَيشتَعِلُ لأيّ أمر، وقَد قال صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَهُ عِندَ الغضبِ.[1]

فليستِ الشِّدَّةُ في سُرعانِ ما يغضَبُ فُلانٌ، بلِ الشَّديدُ مَن يَملكُ نفسَه عِند الغضَبِ.

وَقد قيلَ: لَقدِ استَحَالَ تخيُّل الغَضبانِ عَاقلًا، فإنَّ مَا بينَ العقلِ والغضَبِ مثل مَا بينَ المَشرقِ والمَغربِ بَل أبعد، وَليسَ أسجعُ مِن امرئٍ لَم يستَحكمْ غيظَهُ.

فَإنْ قيلَ: مَا الحلُّ مَع امرئٍ يتفَوَّهُ بكلامٍ يجعلُ مَن عُرِفَ بالحِلمِ أنْ يغضَبَ؟

قَالَ الحسنُ: المؤمِنُ حليمٌ لَا يجَهَلُ، وإنْ جُهِلَ عَليه. وَتلا قَولَهُ تعالى: وإذا خَاطبَهُمُ الجاهِلونَ قَالُوا سَلَامًا.[2]

وَ قَد قَالَ بعضُهُم: وَالسُّكوتُ عَن جوابِ الأحمقِ جوابُهُ.[3]

وَليسَ لِعاقلٍ أن يتخيَّلَ صُعُوبَةَ ما يمُرُّ بِه الأحمقُ عِندَ الإعراضِ عَنهُ، واللامُبالاةِ لِكلامِه.

---

[1] رواه البخاري (٦١١٤).
[2] رواه ابن أبي الدنيا في ((الحلم)).
[3] ((إحياء علوم الدين)).

وَقيلَ لابنِ مُبارك: اِجمَعْ لنا حُسنَ الخُلُقِ فِي كلمةٍ، قَال: تَركُ الغَضبِ.[1]

وَكفى بِمَن أرادَ النَّجاةَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ:

مَن كَان يؤمِنُ باللهِ واليومِ فَليقُل خيرًا أَو لِيَصمُتْ.[2]

وَ قال الشَّاعرُ:

لا يحمِلُ الحِقدَ مَن تَعلُو بِهِ الرُّتَبُ وَلا ينَالُ العُلا مَن طبعُهُ الغضَبُ

وَقال غيرُهُ:

والحِلمُ آفتُهُ الجهلُ المُضرُّ بِهِ والعقلُ آفتُهُ الإعجابُ والغَضبُ

---

[1] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب.

[2] رواه البخاري (٦٤٧٥).

الأُسلوبُ الرَّابعُ: (الشَّتائم).

الشَّتمُ لُغةً: مَصدر شَتَمَهُ يَشتِمَهُ شَتمًا؛ أي: سبَّهُ.

وَرجلٌ شَتَّامة: كثيرُ الشَّتمِ.[1]

وقَد عرَّفَهُ بعضُ أهلِ العلمِ، بأنَّهُ: الكلامُ الَّذي يُقصَدُ بهِ الانتقاصُ والاستِخفافُ، وَهُو مَا يُفهَمُ مِنه السَّبُّ فِي عقولِ النَّاسِ علَى اختِلافِ اعتقَادَاتِهم كاللَّعنِ والتَّقبيحِ وَنحوِه.[2]

وَقالَ بعضُهم: الشتم !!

فإنهُ من المعلومِ عند العُقلاء أنّ الشتمَ فِعلٌ مذموم، يترفع عنهُ أصحابُ الأخلاق الحسنة، والنفوس الرفيعة.

ولابُدَّ أن نعلم أن الشريعة الإسلاميّة أتت لترقية الإنسان من النقصان إلى الكمال، ودرجاتُ الناس تتفاوت في ذلك.

وجاءت المقاصد الرائقة من الشريعة على لسان نبينا محمّد ﷺ تحثُّ على حفظِ اللسان، والقول بالتي هي أحسن. (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسنًا)[3]

---

[1] لسانُ العرب.
[2] ((الصارم المسلول)).
[3] سورةُ البقرة.

فالكلامُ الحسن لهُ أثره في القلب، كما أنَّ القبيحَ منه لهُ أثرٌ، فتأمل..
أيهما تريدُ أن تُخاطبَ بهِ، فافعلهُ مع الناس!

وأعودُ فأقول، ينبغي للمرء أن يحفظ تلك الجارحة _ أعني اللّسان _،
هكذا أمرنا أكملُ النّاس محمّد ﷺ.

فابتعد عن الشتم، فإنّه يدّلُ على خفةِ العقل، وسرعةِ، الغضب، وبذاءة اللّسان، وضعفِ الشخصيّة.

فقُل حسنًا ترىٰ حسنًا.

قَالَ تَعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾
[البقرة: 83]
وَ (قولُوا) فعل أمر مِن اللهِ تعالى، وَلمْ نُؤمرْ من اللهِ إلَّا مَا كانَ خيرًا لَنا، وإنْ كُنَّا لَم نُدركِ ذلكَ الخيرَ.

والشَّتمُ _أعزَّكُمُ اللهُ_ مِن آفاتِ اللِّسانِ، وليسَت مِن الأقوالِ الحَسنةِ الَّتي أُمِرنا بِها، بَل هيَ مِمَّا نُهينا عنْها أشدّ النَّهي، قَالَ تَعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾
[الأنعام: 108]

فإذا كَان الَّذي يدعو مِن دونِ اللهِ نُهينَا عَن سَبِّه _وذلك لِمصلحةٍ_ فكيفَ بالمُسلم؟

قَال تَعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]

وَنُهينا عَن مُجادلةِ أهلِ الكتابِ إلَّا بالَّتي هيَ أحسن، قَال تَعالى:

﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: 46]

قَال بعضُ أهلِ العلمِ: ومنْ أدبِ الإنسانِ الَّذي أدَّبَ اللهُ، أن يكونَ نزيْهًا في أقوالِه وأفعالِهِ، غيرُ فاحشٍ وَلا بذيءٍ، وَلا شاتِمٍ وَلا مُخاصِمٍ.[1]

قَالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ ولَا الفاحشِ وَلا البذيءِ.[2]

وَقالَ الفُضيلُ بنُ عيَّاض: واللهِ مَا يَحِلُّ لكَ أنْ تؤذيَ كَلبًا وَلا خنزِيرًا بغيرِ حقٍّ، فَكيفَ تُؤذي مُسلِمًا.[3]

---

[1] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي.
[2] أخرجه الترمذي (١٩٧٧).
[3] ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي.

فنسألُهُ تعَالى أنْ يُعافيَنا مِمَّا ابتُلينَا بهِ، وأنْ يعفوَ عنَّا.

وَقالَ النَّوويُّ: مِن الألفاظِ المَذمومةِ المُستعمِلةِ في العادةِ، قولُه لِمن يُخاصِمُه: يَا حمار، يَا كَلب، ونَحو ذلِكَ، فهذَا قبيحٌ لوجهَينِ: أحدُهُما: أنَّهُ كَذبٌ، والآخر: إيذاء.[1]

وَقالَ ابنُ حبَّان: لا يحبُ علَى العاقلِ أنْ يُكافِئَ الشَّرَّ بمثلِه، وأنْ يتَّخذَ اللَّعنَ والشَّتْمَ عَلى عدوِّه سِلاحًا؛ إذْ لَا يُستعانُ بمِثلِ الإصلاحِ العُيوب، وتحصين العوراتِ حتَّى لا يجدَ العدوُّ عليْهِ سَبيلًا.[2]

....

هُناكَ _مَع الأسفِ_ مَن اتَّخذَ هذا الأُسلوبَ لهوًا لِيُعرَفَ بِه، فَتَراهُ يشتِمُ أخاهُ المُسلِمَ ويضْحَكُ، ويضحكُ مَعهُ مَن يَرونَهُ فُكاهيًّا!

فهؤلاءِ لَم يرَوا أنَّه سَفيهٌ، وَذلِكَ لِجَهلِهم، فَكمْ مِن سَفيهٍ تصدَّرَ المَجالِسَ وَأصْبَحَ يتكلَّمُ فِي مَا ليس هو أهلًا لَه.

وَلْيعُلمْ أنَّ هذا المَسلكَ خطيرٌ، وَقدْ يأخذُ بالمرْءِ بالاستهزَاءِ بأُمورٍ في الدِّينِ، ومَا أكثَرَ هؤلَاءِ السُّفهاء!

---

[1] ((الأذكار)).
[2] ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)).

وإنْ سُئِلوا عَن ذَلِكَ، قالُوا: نَمزح، نَلعب، نُغيّر مِن الجَوّ..

فَقدْ ذُكِرَ ذلك في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

قَال سبحانَهُ وَتعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

[سورة التوبة: 65]

فَماذا كَانَ الرَّدُّ؟

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾

[سورة التوبة: 66]

نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ.

قالَ الشَّاعِر:

إذَا شِئتَ يَومًا أَن تَسودَ قَبيلةً فَبِالحلمِ سُدْ لَا بالسَّفاهةِ والشَّتمِ

وَقالَ غيرُه:

وَمن يجعلِ المَعروفَ مِن دونِ عِرضِه يَفِرْهُ وَمن لا يتَّقِ الشَّتْمَ يُشتَمِ

وَقالَ غيرُه:

اِحفظْ لسانَكَ أيُّها الإنسانُ لَا يَلدغنَّكَ إنَّه ثُعْبانُ

كَم فِي المَقابرِ مِن قتيلِ لِسانِه كَانَت تَهابُ لِقاءَهُ الأقْرانُ

الأُسلوبُ الخامِسُ: (التَّعالُمُ).

لُغةً: مَصدرُ (تَعالَمَ)، وتعالَمَ الشَّخصُ، أي: ادَّعى أو أَظهرَ العِلمَ وَالمَعرِفةَ، وَصيغةُ (تَفاعلَ) قدْ تدلُّ عَلى التَّظاهُرِ بِالفعْلِ، مِثلُ: (تَغافَلَ).[1]

وَالتَّعالمُ ليسَ أُسلوبًا مِن أساليبِ التَّكلُّمِ، وَلكِن قَد يدلُّ علَى صِفةٍ مُعيَّنةٍ تَحملُ في طيَّاتِها بعضَ الأساليبِ؛ (كَالكِبْرِ، وَالادِّعاءِ بِما ليسَ فيهِ، وإقناعِ الشَّخصِ بشيءٍ لَا وجودَ لَه، والكَذبِ، وَما أشبهَ ذَلكَ).

فَالمُتعالِمُ؛ هُوَ الشَّخصُ الَّذي يدَّعي عِلمًا هُو ليسَ أهلًا لِمَا يدَّعيه، وَيُحبُّ أَن يُحمدَ بِما ليسَ فِيهِ، قَالَ تعَالى:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[سورة آل عمران: 188]

وَقالَ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ قولِه تَعالى: يعني بِذلكَ المُرائينَ المُتكثِّرينَ بِما لَم يُعطوا.

وَقالَ عِكرمةُ: أنْ يقولَ النَّاسَ لَهُم: علماءُ وَليسُوا بأهلِ عِلمٍ، لَم يحمِلوهُم عَلى خيرٍ وَلا هُدًى، وَيحبُّونَ أنْ يقولَ النَّاسُ: قَد فَعلُوا.[2]

---

[1] الصِّحاحُ (للجوهريّ).

[2] ((تفسير القرآن)) لابن أبي حاتم.

وَقالَ تَعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

[الإسراء: 36]

قَالَ قتادةُ رضيَ اللهُ عَنهُ: لا تَقُلْ: سَمِعتُ، وَلمْ تَسمَعْ، وَلا تَقُل: رأيتُ، وَلمْ تَرَ، فإنَّ اللهَ سائلُكَ عَن ذَلِكَ كُلِّهِ.[1]

وقال ابنُ عاشورٍ: (أي: أنَّك أيُّها الإنسانُ تُسألُ عما تُسنِدُه إلى سمعِك وبصَرِك وعَقلِك، بأنَّ مَراجِعَ القَفْوِ المنهيّ عنه إلى نسبةٍ لسَمعٍ أو بصرٍ أو عقلٍ في المسموعاتِ والمُبصَراتِ والمُعتَقَداتِ، وهذا أدَبٌ خُلُقيٌّ عظيمٌ.

وهو أيضًا إصلاحٌ عقليٌّ جليلٌ يُعَلِّمُ الأمَّةَ التَّفرقةَ بَينَ مراتِبِ الخواطِرِ العقليَّةِ بحيثُ لا يختَلِطُ عندها المعلومُ والمظنونُ والموهومُ.

ثمَّ هو أيضًا إصلاحٌ اجتماعيٌّ جليلٌ يجنِّبُ الأمَّةَ من الوقوعِ والإيقاعِ في الأضرارِ والمهالكِ، من جرَّاءِ الاستنادِ إلى أدلَّةٍ موهومةٍ).[2]

عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُتَشَبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثَوبَيْ زُورٍ)).[1]

---

[1] ((تفسير القرآن)) لابن أبي حاتم.
[2] ((التحرير والتنوير)).

قال النَّوويُّ: (قال العُلَماءُ: معناه المتكَثِّرُ بما ليس عندَه، بأن يُظهِرَ أنَّ عندَه ما ليس عندَه، يتكثَّرُ بذلك عندَ النَّاسِ، ويتزيَّنُ بالباطِلِ؛ فهو مذمومٌ، كما يُذَمُّ من لَبِس ثوبَي زُورٍ؛ قال أبو عُبَيدٍ وآخرون: هو الذي يلبَسُ ثيابَ أهلِ الزُّهدِ والعبادةِ والوَرَعِ، ومقصودُه: أن يُظهِرَ للنَّاسِ أنَّه متَّصِفٌ بتلك الصِّفةِ، ويُظهِرَ من التَّخشُّعِ والزُّهدِ أكثَرَ ممَّا في قلبِه، فهذه ثيابُ زُورٍ ورياءٍ، وقيل: هو كمن لَبِس ثوبَينِ لغيرِه وأوهَمَ أنَّهما له.[٢]

وقال أبو الدَّيَّالِ: (تعلَّمْ: لا أدري، ولا تعلَّمْ: أدري؛ فإن قُلتَ: أدري، يسألوك حتَّى لا تدريَ، وإن قُلتَ: لا أدري، عَلَّموك حتى تدريَ).[٣]

وقال بعضُ الحُكَماءِ: (من العِلمِ ألَّا تتكلَّمَ فيما لا تعلَمُ بكلامِ مَن يعلَمُ؛ فحَسْبُك جهلًا مِن عَقلِك أن تنطِقَ بما لا تفهَمُ).[٤]

وقال الشَّافعيُّ: (الواجِبُ على العالِمين أن لا يقولوا إلَّا من حيثُ عَلِموا، وقد تكلَّم في العِلمِ مَن لو أمسك عن بعضِ ما تكلَّم فيه منه لكان الإمساكُ أولى به، وأقرَبَ من السَّلامةِ له إن شاء اللَّهُ)[٥].

---

[١] أخرجه البخاري (٥٢١٩).
[٢] ((شرح النووي على مسلم)).
[٣] ((الزهد)) لابن أبي عاصم.
[٤] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي.
[٥] ((الرسالة)).

وقال ابنُ حَجَرٍ العَسقلانيُّ: (إذا تكلَّم المرءُ في غيرِ فَنِّه أتى بهذه العجائِبِ!).[1]

وَمِمَّا ذُكِرَ مِن مَظاهرِ التَّعالُمِ:[2]

ذُكِرَ في كُتُبِ المحاضَراتِ أنَّ رجُلًا كان يُفتي كُلَّ سائِلٍ دونَ توقُّفٍ، فلحَظ أقرانُه ذلك منه، فأجمعوا أمْرَهم لامتحانِه بنَحتِ كَلِمةٍ ليس لها أصلٌ، هي: الخُنْفُشارُ، فسألوه عنها فأجاب على البَديهةِ بأنَّه: نَبتٌ طَيِّبُ الرَّائحةِ يَنبُتُ بأطرافِ اليَمَنِ، إذا أكلَتْه الإبِلُ عَقَد لبنُها! قال شاعِرُهم اليمانيُّ:

لقد عَقَدَتْ محبَّتُكم فؤادي كما عَقَد الحَليبَ الخُنْفُشارُ

- وقال داودُ الأنطاكيُّ في تذكِرتِه كذا، وقال فلانٌ وفلانٌ... وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستوقفوه وقالوا: كذَبْتَ على هؤلاء فلا تكذِبْ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم!).[3]

وعن أبي عُبَيدةَ قال: كنَّا نجلِسُ إلى أبي عَمرِو بنِ العلاءِ فنخوضُ في فُنونٍ من العِلمِ، ورجُلٌ يجلِسُ إلينا لا يتكَلَّمُ حتى نقومَ، فقُلْنا: إمَّا أن يكونَ مجنونًا أو أعلَمَ النَّاسِ! فقال يونُسُ: أو خائِفٌ، سأُظهِرُ لكم أمرَه. فقال

---

[1] ((فتح الباري)) لابن حجر.
[2] الدُّرر السَّنِيَّة(الأخلاقُ المَذمومةُ _التَّعالُم_)
[3] ((التعالم)) لبكر أبو زيد.

له: كيف عِلمُك بكتابِ اللَّهِ تعالى؟ قال: عالِمٌ به، قال: ففي أيِّ سورةٍ هذه الآيةُ:

الحمدُ للهِ لا شريكَ له مَن لم يَقُلْها فنَفسَه ظَلَمَا.

فأطرَقَ ساعةً، ثمَّ قال: في: حم الدُّخَان[1] !

فنسألُ اللهَ العَفوَ وَالعافيةَ.

وَاعلَمُوا _بارَكَ اللهُ فيكُم_ أنَّ مِن أكبرِ الكبائرِ؛ القولُ عَلى اللهِ بِلا علمٍ، وَهُوَ مِمَّا يأمرُ بِه الشَّيطانُ.

قَالَ تعالَى:

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[169 :سورة البقرة]

وَقالَ:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

[15 :الكهف]

---

[1] ((أخبار الحمقى والمغفلين)) لابن الجوزي.

قَالَ الشَّاعر:

تشبَّهَ في النَّحوِ بالأخفَشَينِ فجاء بأُعجوبةٍ مُطْرِفَهْ

ولم يسمَعِ النَّحوَ لكِنَّه قرا منه شيئًا وقد صَحَّفَهْ

فإنْ لم يكُنْ أخفَشَ النَّاظِرَينِ فإنَّ الفتى أخفَشَ المعرِفَهْ

وَقالَ غيرُه:

أشَدُّ النَّاسِ لِلعلمِ ادِّعاءً أقلُّهم بما هو فيه عِلمَا

وَقالَ غيرُه:

يظُنُّ الغُمْرُ أنَّ الكُتْبَ تَهدي أخَا فَهمٍ لإدراكِ العُلومِ

وما يدري الجَهولُ بأنَّ فيها غوامِضَ حَيَّرَت عقلَ الفهيمِ

إذا رُمْتَ العلومَ بغيرِ شَيخٍ ضلَلْتَ عن الصِّراطِ المستقيمِ

وتلتَبِسُ العلومُ عليك حتَّى تصيرَ أضَلَّ من تُوما الحكيمِ

وَقالَ غيرُه:

كلُّ مَن يدَّعي بما ليس فيه كذَّبَتْه شواهِدُ الامتحانِ

وَقالَ غيرُه:

فدَعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ولو سوَّدْتَ وَجْهَك بالمِدادِ

وللعُلومِ رِجالٌ يُعرَفون بها وللدواوينِ كُتَّابٌ وحُسَّابُ

الأُسلوبُ السَّادسُ: (الجِدالُ وَالمِراءُ).

والجَدَلُ: مُقابلةُ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، والمجادَلةُ: المناظَرةُ والمُخاصَمةُ، والجِدالُ: الخُصومةُ، سُمِّي بذلك لشِدَّتِه.[1]

المِراءُ: الجِدالُ. والتَّماري والمُماراةُ: المُجادَلةُ على مذهَبِ الشَّكِّ والرِّيبةِ، ويُقالُ للمُناظَرةِ: مُماراةٌ، ومارَيتُه أُماريه مماراةً ومِراءً: جادَلْتُه.[2]

وقال الجُرْجانيُّ: (الجَدَلُ: دَفعُ المرءِ خَصمَه عن إفسادِ قَولِه، بحُجَّةٍ أو شُبهةٍ، أو يَقصِدُ به تصحيحَ كلامِه).[3]

وقال الجُرْجانيُّ: (المِراءُ: طَعنٌ في كلامِ الغَيرِ لإظهارِ خَلَلٍ فيه، من غيرِ أن يرتَبِطَ به غَرَضٌ سِوى تحقيرِ الغيرِ).[4]

وبِذلكَ يُعرَفُ الفرقُ بينَ الجَدَلِ والمِراءِ، فالْجَدلُ قَد يكونُ مَحمُودًا، وَليسَ مَنهيًّاً عَنهُ، فَقد قَال تَعالى: وَجادِلْهُم بِالَّتي هِيَ أَحسَن.

وَأمَّا المِراءُ فيكونُ مذمومًا؛ لارتِباطِهِ بغَرَضٍ مَذمومٍ.

---

[1] لسانُ العرب.
[2] لسانُ العرب.
[3] ((التعريفات)).
[4] ((التعريفات)).

وَقَد قيلَ: الجِدالُ اسمٌ عامٌّ فِي مُقابلةِ الحُجَّةِ بالحُجَّة وَقدْ يَكونُ محمودًا، وَقد يكونُ مذمومًا، إلَّا إذا ارتَبَطَ بالمِرَاءِ، فلَا يكونُ حينئذٍ إلَّا مَذمومًا.

وقيل: هما بمعنًى.

غيرَ أنَّ المِراءَ مذمومٌ؛ لأنَّه مخاصَمةٌ في الحَقِّ بعدَ ظُهورِه، وليس كذلك الجِدالُ.

وَقدْ قَالَ بعضُهُم:

الجدالُ والمِراء؛

لو أردنا أن نتكلم عن الجدال والمِراء لطالَ بنا الحديث في بيانِ فسادِهِ، وسوءِ عاقبتِهِ.

فلازالَ العُقلاء يُحذرُوننا من عدم الوقوع في النقاشات الجدلية.

ويسميها بعضُ الناس (نقاشات بيزنطية).

أي أننا لا نصلُ إلىٰ نتيجةٍ، يتوافق الطرفانِ فيما بينهما.

فالجدالُ:

⇦أولهُ سوءٌ وفُحش.

⇦وأوسطهُ قبحٌ ورداءةُ أخلاق.

⇦ وآخِرُهُ تقاطعٌ وفراق.

فحاصلُ الجدال لا يأتي بخير، والعاقلُ يختارُ أحسنَ الطُرق، وأسلمها.

ولا أظنُّ أنَّ الجدال يشملُ ذلك؟!

انتهَى كلامُه.

قَالَ تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾
[سورة الحج: 8]

قال السَّعديُّ: (ومِن النَّاسِ طائفةٌ وفِرقةٌ سَلَكوا طريقَ الضَّلالِ، وجَعَلوا يجادِلون بالباطلِ الحَقَّ، يريدون إحقاقَ الباطِلِ وإبطالَ الحَقِّ، والحالُ أنَّهم في غايةِ الجَهلِ، ما عِندَهم من العِلمِ شَيءٌ).[1]

وَقالَ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾
[الكهف: 54]

قال ابنُ كثيرٍ في تَفسيرِ قولهِ تَعالى: (يقولُ تعالى: ولقد بَيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القرآنِ، ووضَّحْنا لهم الأمورَ وفصَّلْناها؛ كي لا يَضِلُّوا عن الحَقِّ، ويخرُجوا

[1] ((تيسير الكريم الرحمن)).

عن طريقِ الهُدى. ومع هذا البيانِ وهذا الفُرْقانِ، الإنسانُ كثيرُ المُجادَلةِ والمخاصَمةِ والمعارَضةِ للحَقِّ بالباطِلِ، إلَّا مَن هدى اللهُ وبَصَّرَه لطَريقِ النَّجاةِ).

عن أبي أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه، إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ. ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذه الآيةَ: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [الزخرف: ٥٨])).[١]

وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طَرَقَه وفاطِمةَ بنتَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً، فقال لهم: ألا تُصَلُّون؟! قال عَليٌّ: فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ، فإذا شاء أن يبعَثَنا بعَثَنا! فانصرَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ قُلتُ ذلك، ولم يرجِعْ إليَّ شَيئًا، ثمَّ سمِعتُه وهو مُدبِرٌ يَضرِبُ فَخِذَه ويقولُ: وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا!)).[٢]

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ)).[٣]

---

[١] أخرجه الترمذي (٣٢٥٣).
[٢] رواه البخاري (٧٤٦٥).
[٣] رواه البخاري (٢٤٥٧).

قال الصَّنعانيُّ: (أي: الشَّديدُ المِراءِ، أي: الذي يَحُجُّ صاحِبَه).[1]

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (مِن استحقاقِ حقيقةِ الإيمانِ تَركُ المِراءِ والمَرءُ صادِقٌ).[2]

- وقال أبو الدَّرداءِ: (كفى بك إثمًا ألَّا تزالَ مُماريًا!).[3]

- وقال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: (لن يصيبَ رَجُلٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يترُكَ المِراءَ، وهو يعلَمُ أنَّه صادِقٌ، ويَترُكَ الكَذِبَ في المُزاحةِ).[4]

- ورُوِيَ عن معاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: (إذا أحبَبْتَ أخًا فلا تُمارِه).[5]

وقال محمَّدُ بنُ الحُسَينِ الآجُرِّيُّ: (من صفةِ الجاهِلِ: الجَدَلُ، والمِراءُ، والمُغالَبةُ).[6]

- وعن الحَسَنِ قال: (ما رأينا فقيهًا يُماري).[7]

---

[1] ((سبل السلام)).
[2] رواه هناد في ((الزهد)).
[3] ابن أبي الدنيا في ((الصمت)).
[4] رواه عبد اللهِ بن أحمد في ((الزهد)).
[5] رواه البخاري في ((الأدب المفرد)).
[6] ((أخلاق العلماء)) للآجُرِّي.
[7] ((أخلاق العلماء)) للآجري.

- وعنه أيضًا: (المُؤمِنُ يُداري ولا يُماري، يَنشُرُ حِكمةَ اللهِ، فإنْ قُبِلت حَمِدَ اللهَ، وإن رُدَّت حَمِدَ اللهَ).[1]

إذًا، فَما الحلُّ؟!

الحلُّ فِي مَن تدبَّرَ قولَهُ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ_ :

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّةِ لِمَن ترَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببَيتٍ في وَسَطِ الجنَّةِ لِمَن تَرَك الكَذِبَ وإن كان مازِحًا، وببَيتٍ في أعلى الجنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُه)).[2]

قالَ الشَّاعِرُ:

نصَحْتُك فيما قُلْتُه وذَكَرْتُه وذلك حقٌّ في المودَّةِ واجِبُ

لا تركَنَنَّ إلى المِراءِ فإنَّه إلى الشَّرِّ دَعَّاءٌ وللغَيِّ جالِبُ

وَقالَ غيرُه:

فإيَّاكَ إيَّاكَ المِراءَ فإنَّه سبَبٌ لكُلِّ تنافُرٍ وتشاوُسِ

وافعَلْ جميلًا لا يَضيعُ صَنيعُه واسمَحْ بقُوتِك للضَّعيفِ البائِسِ

---

[1] ((أخلاق العلماء)) للآجري.
[2] رواه أبو داود (٤٨٠٠).

لا تفخَرَنَّ وإن فعَلْتَ فبالتُّقى ناضِلْ وفي بَذلِ المكارِمِ نافِسِ

وَقالَ غَيرُه:

وإيَّاك مِن حُلِو المُزاحِ ومُرِّهِ ومِن أن يراك النَّاسُ فيه مُمارِيَا

وإنَّ مِراءَ المَرءِ يُخلِقُ وَجهَه وإنَّ مُزاحَ المَرءِ يُبدي التَّشانيَا

دعاه مُزاحٌ أو مِراءٌ إلى التي بها صار مَقْليَّ الإخاءِ وقاليَا

وَقالَ غيرُه:

أبُنَيَّ لا تَكُ ما حَيِيتَ مُماريًا ودَعِ السَّفاهةَ إنَّها لا تنفَعُ

لا تحمِلَنَّ ضَغينةً لقَرابةٍ إنَّ الضَّغينةَ للقَرابةِ تَقطَعُ

لا تحسَبَنَّ الحِلمَ منَّك مَذَلَّةً إنَّ الحَليمَ هو الأعزُّ الأمنَعُ

....

نسألُ اللهَ أنْ يُعافيَنَا مِمَّا ابتُلِينَا بِهِ، وأنْ يعفوَ عنَّا.

الأُسلوبُ السَّابعُ: (الهَمْزُواللَّمْزُ).

الهَمزُ لُغةً: (همز) كَلِمةٌ تَدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ، ومنه الهَمْزُ في الكلامِ؛ لأنَّه يُضغَطُ، والهَمْزُ قيل: هو الكَسرُ، وقيل: العضُّ، وقيل: الدَّفعُ والضَّربُ، وهَمزُ الإنسانِ: اغتيابُه. والهَمَّازُ: العَيَّابُ، وكذا الهُمَزةُ، وقيل: الهُمَزةُ: مَن اعتادَ كَسرَ أعراضِ النَّاسِ.[1]

اللَّمزُ لُغةً: العَيبُ، والإشارةُ بالعَينِ ونحوِها، والضَّربُ، والدَّفعُ، ورَجُلٌ لَمَّازٌ ولُمَزةٌ، أي: عَيَّابٌ. وقيل: اللُّمَزةُ: من اعتاد الطَّعنَ في النَّاسِ.[2]

قيل: اللَّمزُ: (أكلُ لُحومِ النَّاسِ).[3]

وقيل: (تلقيبُ الرَّجُلِ بما يَكرَهُ).[4]

والهَمزُ واللَّمزُ مِن جنسِ الغيبةِ، قَالَ بعضُ أهلِ العلْمِ:

(ومِن جِنسِ الغِيبةِ: الهَمْزُ واللَّمزُ؛ فإنَّ كِليهما فيه عيبُ النَّاسِ والطَّعنُ عليهم، كما في الغِيبةِ، لكِنَّ الهَمْزَ هو الطَّعنُ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، بخلافِ اللَّمزِ؛ فإنَّه قد يخلو من الشِّدَّةِ والعُنفِ).[5]

---

[1] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس.
[2] المرجع السَّابق.
[3] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا.
[4] ((تفسير مقاتل)).
[5] ((مجموع الفتاوى)).

قَال تعالى:

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

[الحجرات: 11]

قالَ بعضُ المُفسِّرين: قال تعالى: وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ؛ لا يطعَنْ بعضُكم على بعضٍ؛ فإنَّ ذلك معصيةٌ.

قَال تعَالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

[سورة الهمزة: 1]

وَقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

[سورة الأحزاب: 58]

قَالَ بعضُ أهلِ العلمِ: فلا يحِلُّ إيصالُ الأذى إلى المُسلِمِ بوَجهٍ من الوُجوهِ من قَولٍ أو فِعلٍ بغيرِ حَقٍّ.[1]

عن أنس بن مالك رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لمَّا عُرِج بي مرَرْتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يَخمِشونَ وُجوهَهم

[1] يُنظَر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي.

وصُدورَهم، فقُلتُ: مَن هؤلاء يا جِبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكُلون لحومَ النَّاسِ، ويَقَعون في أعراضِهم)).[1]

قَال بعضُ أهلِ العلمِ: قولُه: ((يخمِشون)) أي: يخدِشون، ولمَّا كان خَدشُ الوَجهِ والصَّدرِ من صِفاتِ النِّساءِ النَّائحاتِ، جعَله اللهُ تعالى جزاءً للواقِعِ في الأعراضِ إشعارًا بأنَّهما ليسا من صفاتِ الرِّجالِ، بل هما من صفاتِ النِّساءِ في أقبَحِ حالةٍ وأشوَهِ صُورةٍ.[2]

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إذا قال الرَّجُلُ: هلك النَّاسُ فهو أهلَكُهم)).[3]

قَالَ بعضُ أهل العلم: معناه: لا يزالُ الرَّجُلُ يَعيبُ النَّاسَ ويَذكُرُ مَساوِيَهم حتى يكونَ أسوأَهم حالًا، ممَّا يَلحَقُه من الإثمِ في عَيبِهم والإزراءِ بهم والوقيعةِ فيهم.[4]

قال ابنُ سيرينَ: (ظُلمٌ لأخيك المُسلِمِ أن تقولَ أسوَأَ ما تعلَمُ فيه وتَكتُمَ خيرَه).[5]

---

[1] أخرجه أبو داود (٤٨٧٨).
[2] ((الكاشف)) للطيبي.
[3] رواه مسلم (٢٦٢٣).
[4] ((معالم السنن)) للخطابي.
[5] ((الاستذكار)) لابن عبد البر.

عن عمرِو بنِ مُرَّةَ أنَّ الرَّبيعَ بنَ خُثَيمٍ ذُكِر عندَه رَجُلٌ، فقال: (ذِكرُ اللهِ خيرٌ مِن ذِكرِ النَّاسِ!).[1]

قال الأصمعيُّ: (شاهَدْتُ أعرابيَّةً وهي توصي ابنَها، فقالت: يا بُنَيَّ، أمنَحُك وصيَّتي وباللهِ التَّوفيقُ، فإيَّاك والنَّميمةَ؛ فإنَّها تورِثُ العداوةَ بَيْنَ الأهلينَ، وتُفَرِّقُ بَيْنَ المحبِّين، وإيَّاك والتَّعرُّضَ للعُيوبِ، فتَصيرَ لها أهلًا، وإيَّاك والجُودَ بدينِك والبُخلَ بمالِك، ومَثِّلْ لنَفسِك مثالًا من غيرِك، فما استحسَنْتَه من النَّاسِ فافعَلْه، وما استقبَحْتَه منهم فاجتَنِبْه؛ فإنَّ المرءَ لا يرى عيبَ نَفسِه).[2]

قال السُّبكيُّ: (كنتُ جالِسًا بدِهليزِ[3] دارِنا، فأقبَل كَلبٌ فقُلتُ له: اخسَأْ! كلبٌ ابنُ كَلبٍ! فزجرني والدي، فقُلتُ له: أليس هو بكَلبٍ ابنِ كَلبٍ؟ قال: شَرطُ الجوازِ عَدَمُ قَصدِ التَّحقيرِ، فقُلتُ: هذه فائدةٌ!).[4]

قال أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ أبي سليمانَ الصَّوَّافُ: (يا طالبَ العلمِ، إذا طلبْتَ العلمَ، فاتَّخِذْ له قبلَ طلبِه أدبًا تستعينُ به على حملِه. ومِن أدبِ العلمِ الحلمُ، والحلمُ: كظمُ الغيظِ، وأنْ يغلبَ علمُك وحلمُك هواك إذا دعاك إلى ما يشينُك. وعليك بالوقارِ، والتعفُّفِ، والدرايةِ، والصيانةِ،

---

[1] ((شعب الإيمان)) للبيهقي.
[2] ((بحر الدموع)) لابن الجوزي.
[3] ممرٌّ ما بينَ البابِ والدَّار.
[4] ((فيض القدير)) للمناوي.

والصمتِ، والسَّمتِ الحسنِ، والتودُّدِ إلى النَّاسِ، ومجانبةِ مَن لا خيرَ فيه، والقولِ الحسنِ في إخوانِك، والكفِّ عمَّن ظلَمك، ولا تهمِزْ أحدًا، ولا تلمِزْه، ولا تقُلْ فيه، ولو كان عدوَّكَ).[1]

فكيفَ ينجُو المرءُ مِن ذَلِك؟

إذَا تدبَّرَ قولَهُ تَعالَى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

وَأكثرَ مِن ذكْرِ الخالقِ، وذَلكَ خيرٌ لَهُ مِن ذكرِ المَخلوقِ!

وَلْيُعلَم أنَّ أكثرَ ما يُدخلُ النَّاسَ النَّارَ ألسِنتُهُم!

فالأمرُ ليسَ بهيّنٍ، ولا يُمكنُ أن يكونَ هيّنًا!

فطُوبى لِمَن أكْثرَ مِن ذكرِ اللهِ تَعالى، وصَارَ ذَلِكَ كَصاحبٍ يُصاحِبُهُ فِي طريقِهِ، وَلِمن كفَّ لسانَه عَن عِرضِ النَّاسِ والطَّعنِ فيهِم عَلَى غيرِ وجهِ الحقِّ، وَلِمن أدرَكَ حقيقةَ هذهِ الدُّنيا الَّتي فناؤهَا مَحتومٌ، وَيَوم فَنائِها آتٍ لَا مَحالة، وَحقيقةَ الآخرةِ الَّتي هِيَ خيرٌ وأبقَى.

..

---

[1] ((ترتيب المدارك)) للقاضي عياض.

قَالَ الشَّاعرُ:

تُدلي بوُدِّي إذا لاقيتَني كَذِبًا وإن أغيبُ فأنت الهامِزُ اللُّمَزَهْ

وَقالَ غيرُه:

ولا خَيرَ في حُرٍّ يُريك بشاشةً ويَطعَنُ مِن خَلفٍ عليك ويَلمِزُ

وَقالَ غيرُه:

يغتابُ عِرضي غائبًا فإذا تلاقَينا اقشَعَرَّا

يُبدي كلامًا لَيِّنًا عندي ويَحقِرُ مُستَسِرًّا

وَقالَ غيرُه:

لي صديقٌ هو عندي عَوَزٌ من سِدادٍ لا سِدادٌ مِن عَوَزِ

وجهُه يُذَكِّرُني دارَ البلى كلَّما أقبَلَ نحوي وغمَزْ

وإذا جالَسَني جرَّعني غُصَصَ الموتِ بكُربٍ وعَلَزْ

يصِفُ الوُدَّ إذا شاهَدَني فإذا غاب وشَى بي وهَمَزْ

كحِمارِ السُّوءِ يُبدي مَرَحًا وإذا سِيقَ إلى الحَملِ غَمَزْ

الأُسلوبُ الثَّامِنُ: (رَفعُ الصَّوتِ).

الصَّوتُ لُغةً: أصلُ (رفع) يدُلُّ على خِلافِ الخَفضِ، وهو نقيضُ الوَضعِ، والصَّوتُ هو جِنسٌ لكُلِّ ما وقَرَ في أذُنِ السَّامِعِ؛ فالصَّوتُ هو ما يتأتَّى سماعُه.[1]

قَالَ تَعالَى:

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

[لقمان: 19]

قَال بعضُ أهلِ العلمِ: تعليلٌ للأمرِ بالغَضِّ من الصَّوتِ، فغايةُ مَن رَفَع صوتَه أنَّه يُشبَّهُ بالحميرِ في عُلُوِّه ورفعِه، ومع هذا هو بغيضٌ إلى اللَّهِ تعالى.[2]

قَال ابنُ عُثيمين _رَحمَهُ اللهُ_ في تفسيرِ الآيةِ: و(مِن) في قولِه: مِنْ صَوْتِكَ للتَّبعيضِ، فلم يَقُلْ: (اغضُضْ صَوتَك)، بل قال: مِنْ صَوْتِكَ، وذلك لأنَّ الإنسانَ لا يُحمَدُ على رَفعِ الصَّوتِ جِدًّا، ولا على خَفضِه جِدًّا، بل يكونُ أيضًا قَصدًا بَيْنَ رَفعِ الصَّوتِ والإخفاءِ.

---

[1] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس.

[2] ((جامع البيان)) لابن جرير الطبري.

فرفعُ الصَّوتِ _وإنْ كَان عِندَ بعضِ النَّاسِ شَجاعةً_ مَذمومٌ، وقَدْ شُبِّهَ بِصوتِ مَن لَا خيرَ فِي صَوتِه.

وَقدْ قيلَ:

ما كانَ الحقُّ صُراخًا، ولا كان الكلامُ نَعيقًا.

فعلى من يُريدُ إصابةَ المعنى _الَّذي خفيَ عن غيره_ أنْ يتحلَّى بأجملِ لفظٍ وأرقِّ منطِق عِندَ بيانِه، ولا والله ما كانَ كمالُ العقلِ في نقصان الخلُق، وإنّ رجُلًا علا صوتهُ في منقصة، لأهونُ عند العقلاء من الجُعرِ على قمامة، هذا في صَوابه-ويتندّرُ هذا- فكيفَ عند خطلِه..

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((الفَخرُ والخُيَلاءُ في الفَدَّادينَ)).[1]

قَال بعضُ أهلِ العلمِ: وهُم الَّذين تَعلُو أصواتُهم في إبِلِهم وخَيلِهم وحُروثِهم ونحوِ ذلك؛ فقولُه: ((الفَدَّادينَ)) من الفَديدِ، وهو الصَّوتُ الشَّديدُ.[2]

وَقالَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألا أخبِرُكم بأهلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبِرٍ))[1]

---

[1] أخرجه البخاري (٣٤٩٩).
[2] شرح النووي على مسلم.

ومن معاني الجوَّاظِ: شديدُ الصَّوتِ في الشَّرِّ.[٢]

وَكفى بالمَرءِ زَجرًا أَن يتَّخذَ رفعَ الصَّوتِ وسيلةً فِي بيانِ عمَّا في داخلِهِ.

كلَّمَ رجُلٌ عُمَرَ بنَ عَبدِ العزيزِ فرَفَع صوتَه، فقال عُمَرُ: مَهْ! ترفَعُ صَوتَك! بحَسْبِ الرَّجُلِ المُسلِمِ من الكلامِ ما يُسمِعُ صاحِبَه، قال أبو بكرٍ ابنُ أبي الدَّنيا: كانوا يكرَهون رَفعَ الصَّوتِ.[٣]

وَقد جَاءَ النَّهيُ عنْ رفعِ الصَّوتِ فَوقَ صوتِ النَّبيِّ ـصلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَـ فِي قولِه تَعَالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2]

قال مالِكٌ: (مَن رَفَع صَوتَه على صَوتِ حَديثِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكأنَّما رفَعَ صَوتَه فَوقَ صَوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).[٤]

فَكمْ مِن سَفيهٍ يعْلُو صوتُهُ حينَ يأتيهِ الأمرُ مِن حديثٍ لنبيِّ هذهِ الأُمَّة!

فَلْيحذرْ هؤلاءِ أَنْ تَحبطَ أعمَالُهُم دونَ أنْ يَشعروا بِذلِكَ.

---

[١] أخرجه البخاري (٤٩١٥).
[٢] ((كشف المشكل)) لابن الجوزي.
[٣] ((إصلاح المال)) لابن أبي الدنيا.
[٤] ((القربة بالصلاة على النبي)) لابن بشكوال.

نسألُ اللهَ العَفوَ والعَافيةَ.

قال أبو عبدِ اللهِ القُرطبيُّ: (كانت العَرَبُ تفخَرُ بجَهارةِ الصَّوتِ؛ فمن كان منهم أشَدَّ صوتًا كان أعَزَّ، ومن كان أخفَضَ كان أذَلَّ؛ فنهى اللهُ سُبحانَه وتعالى عن هذه الخُلُقِ الجاهِليَّةِ، فلو أنَّ شيئًا يُهابُ لصَوتِه لكان الحِمارَ، فجَعَلهم في المثَلِ سَواءً).[1]

وعن السَّائبِ بنِ يزيدَ قال: (كنتُ قائِمًا في المسجِدِ فحَصَبَني رجلٌ، فنظَرْتُ فإذا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ، فقال: اذهَبْ فأْتِني بهذينِ، فجِئْتُه بهما، قال: من أنتما -أو من أين أنتما-؟ قالا: من أهلِ الطَّائِفِ، قال: لو كنتُما من أهلِ البَلدِ لأوجَعْتُكما، ترفعانِ أصواتَكما في مسجِدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم!).[2]

...

[1] ((الجامع لأحكام القرآن)).
[2] أخرجه البخاري (٤٧٠).

قَالَ الشَّاعرُ:

زمانُك ذا زمانُ لزومِ بَيتٍ وحِفظٍ لِلّسانِ وخَفضِ صَوتِ

وَقالَ غيرُه:

فاخفِضْ حديثَك للمُحَدَّثِ جاهِدًا فذميمةُ الأصواتِ مُرتَفِعاتُها

وَقالَ غيرُه:

كحِمارِ السُّوءِ إن أشبَعْتَه رمَحَ النَّاسَ وإن جاعَ نَهَق

الباب الثَّاني:

الأساليبُ الإيجابيَّة.

الأُسلوبُ الأوَّلُ: (الإنْصَاتُ).

الإنصاتُ لغةً:

السُّكوتُ معَ الاستماعِ لحديثٍ؛ يُقالُ: نصَت وأنصَت وانتصَت بمعنًى واحدٍ: إذا سكت سُكوتَ مُستمِعٍ.[1]

وقال أبو عبدِ اللهِ القُرطُبيُّ: (السُّكوتُ للاستِماعِ والإصغاءِ والمراعاةِ).[2]

وقال الثَّعلبيُّ: (ليس الإنصاتُ بالسُّكوتِ فقط، إنَّما الإنصاتُ أن تُحسِنَ استماعَ الشَّيءِ).[3]

قُلتُ: هُناكَ فَرقٌ بَينَ الإستِمَاعِ وَالإنْصاتِ، فَالاستِمَاعُ قصدُ السَّماعِ، وَيكونُ الاستِمَاعُ لِمَا تُحبُّ سَماعَهُ، ولِما لا تُحِبُّ؛ فقَد تَستمِعُ لشيءٍ مَكروهٍ بالنِّسبةِ لكَ، وَلكنَّكَ مَجبورٌ بالاستِمَاعِ لَه، كَاستِمَاعِك لِكلمةٍ صَدرَتْ مِن جاهلٍ لِترُدَّ عَليهَا.

أمَّا الإنْصَاتُ فَكما قَال الثَّعلبيُّ: " إنَّما الإنصاتُ أن تُحسِنَ استماعَ الشَّيءِ"

---

[1] ((لسان العرب)) لابن منظور.
[2] ((الجامع لأحكام القرآن)).
[3] ((الكشف والبيان)).

وَثمَّةَ فرقٌ بينَ الاستمَاعِ والسَّمَاعِ، لَا بُدَّ مِن بيَانِ ذَلِكَ، فالاِستمَاعُ قصدُ السَّماعِ عَن إرادةٍ؛ كاستِمَاعِكَ لِلقُرآنِ الكَريمِ، والسَّماعُ لِما يكونُ دونَ قَصدٍ؛ كَسماعِكَ لأُغنيةٍ يَستمِعُ إليهَا مَن طلبَ سماعَها.

فالفرقُ بينَ سَمِعَ وَاستمعَ، يكمُنُ فِي صيغةِ (اِستفْعلَ).

وَقَال الثَّعالبيُّ في فِقهِ اللُّغة في فَصلِ أبنيةِ الأفعَالِ:

(استَفْعَلَ)

١/ يكون بمعنى التَّكلُّف نحو استَعْظَمَ أي تَعَظَّمَ واستَكْبَرَ أي تَكَبَّرَ.

٢/ ويكون استفعَلَ بمعنى الاستدعاء والطلب نحو استَطْعَمَ واستَسْقى واسْتَوْهَبَ .

٣/ ويكون بمعنى فَعَلَ نحو اسْتَقَرَّ أي أقَرَّ.

٤/ ويكون بمعنى صار نحو اسْتَنْوَقَ الجَمَلُ واستَنْسَرَ البُغاثُ.

واللهُ تَعالى أعلى وَأعلمُ.

قَالَ تَعالَى:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[سورة الأعراف: 204]

قَالَ بعضُ أهلِ العلمِ:

لمَّا ذكَر تعالى أنَّ القُرآنَ بصائِرُ للنَّاسِ وهدًى ورحمةٌ، أمَر تعالى بالإنصاتِ عندَ تِلاوتِه؛ إعظامًا له واحترامًا.[1]

وعن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ((قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا ذا الأُذُنَينِ)).[2]

قَال بعضُ أهلِ العلمِ: ويُشبِهُ أن يكونَ المعنى في ذلك التَّنبيهَ على حُسنِ الاستِماعِ وجودةِ الوعيِ للقولِ، وسمَّاه ذا الأُذُنَينِ؛ إذ كان الاستِماعُ إنَّما يكونُ بحاسَّةِ الأذُنِ، وقد خلَق اللهُ تعالى له أُذُنَينِ يسمعُ بكُلِّ واحدةٍ منهما، وجعَلهما حُجَّةً عليه، فلا يُعذَرُ معَهما إن أغفَل الاستِماعَ له، ولم يُحسِنِ الوعيَ له.[3]

---

[1] ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير.

[2] أخرجه الإمام أحمد (١٢١٦٤).

[3] ((معالم السنن)) للخطابي.

وَمِن وصايا لُقمانَ لابنِه: (يا بُنيَّ، زاحِمِ العُلماءَ برُكبتَيك، وأنصِتْ إليهم بأُذُنَيك؛ فإنَّ القلبَ يحيا بنورِ العُلماءِ كما تحيا الأرضُ الميّتةُ بمطرِ السَّماءِ).[1]

فإن قيلَ، كَيفَ يكونُ الإنصاتُ؟

فَقُل: يَكونُ بحُسنِ الاستماعِ.

فإن قِيلَ، وَكيفَ يكونُ حُسنُ الاسْتِماعِ؟

فَقُل: كَمَا قَال بعضُهُم: إنَّ حُسنَ الاستماعِ إمهالُك المُتكلِّمَ حتَّى يُفضيَ إليك بحديثِه، والإقبالُ بالوجهِ والنَّظرِ، وتَركُ المُشارَكةِ في حديثٍ أنت تعرِفُه).[2]

وقال الحسنُ بنُ عليٍّ _رضيَ اللهُ عَنهم_لابنِه: (يا بُنيَّ، إذا جالسْتَ العُلماءَ فكنْ على أن تسمَعَ أحرَصَ منك على أن تقولَ، وتعلَّمْ حُسنَ الاستماعِ كما تتعلَّمُ حُسنَ الصَّمتِ، ولا تقطعْ على أحدٍ حديثًا وإن طال حتَّى يُمسِكَ).[3]

---

[1] يُنظر: ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه.
[2] يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي
[3] يُنظر: ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي.

وَمِن حُسنِ أدبِ المُتعلِّمِ أَنْ يُحسنَ الاسْتِماعَ وَإنْ كَان الكلامُ قَد سَمِعه مِن قَبل.

قال خالِدُ بنُ صفوانَ: (إذا رأَيتَ مُحدِّثًا يُحدِّثُ حديثًا قد سمعْتَه، أو يُخبِرُ خبرًا قد عَلمْتَه، فلا تُشارِكْه فيه حرصًا على أن تُعلِمَ مَن حضَرك أنَّك قد علِمْتَه؛ فإنَّ ذلك خِفَّةٌ وسوءُ أدبٍ).[1]

وَهذِه خَيرُ نَصيحةٍ تُقالُ لِكثيرٍ مِن طُلَّابِ العلمِ فِي هذَا الوقْتِ.

وَقال مُعاذُ بنُ سَعدٍ الأعوَرُ: (كنْتُ جالسًا عندَ عطاءِ بنِ أبي رَباحٍ، فحدَّث بحديثٍ، فعرَض رجُلٌ مِن القومِ في حديثِه، فغضِب وقال: ما هذه الأخلاقُ؟ وما هذه الطَّبائعُ؟ إنّي لأسمعُ الحديثَ مِن الرَّجلِ وأنا أعلَمُ منه به، فأُريه أنّي لا أحسِنُ شيئًا منه).[2]

وفي رِوايةِ ابنِ جُرَيجٍ عن عطاءٍ قال: (إنَّ الرَّجلَ ليُحدِّثُني بالحديثِ، فأنصِتُ له، كأنّي لم أسمعْه قطُّ، وقد سمعْتُه قَبلَ أن يُولَدَا!).[3]

وقيل: (لا خيرَ في الحياةِ إلَّا لأحدِ رجُلَينِ؛ مُنصِتٍ واعٍ، أو مُتكلِّمٍ عالِمٍ).[4]

---

[1] ((الجامع لأخلاق الراوي)) للخطيب البغدادي.
[2] ((الحلية)) لأبي نعيم الأصبهاني.
[3] ((العقد الثمين)) لتقي الدين الفاسي.
[4] ((روضة العقلاء)) لابن حبان.

وَقيلَ: (إذا جالسْتَ الجُهَّالَ فأنصِتْ لهم، وإذا جالسْتَ العُلماءَ فأنصِتْ لهم؛ فإنَّ في إنصاتِك للجُهَّالِ زيادةً في الحِلمِ، وفي إنصاتِك للعُلماءِ زيادةً في العِلمِ).[1]

وَقدْ يُنهى عَن الإنصَاتِ فِي بعضِ المُواضِعِ.

قَالَ تَعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [68 :سورة الأنعام]

قَالَ بعضُ أهلِ العلمِ: فيجبُ أن يُنزِّهَ الإنسانُ سمعَه كما يُنزِّهُ لسانَه، وقد أنشَد بعضُهم:

فسمعَك صُنْ عن سماعِ القبيحِ

كصونِ اللِّسانِ عن النُّطقِ بهْ

فإنَّك عندَ سماعِ القبيحِ

شريكٌ لقائِلِه فانتبِهْ [1]

[1] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي.

وَقال أحمَدُ بنُ يحيى الوزيرُ: (خرج الشَّافعيُّ يومًا مِن سوقِ القناديلِ مُتوجِّهًا إلى حُجرتِه، فتبِعناه، فإذا رجُلٌ يُسفِّهُ على رجُلٍ مِن أهلِ العِلمِ، فالتفَت إلينا الشَّافِعيُّ، فقال: نزِّهوا أسماعَكم عن استماعِ الخنا[٢] كما تُنزِّهونَ ألسِنتَكم عن النُّطقِ به؛ فإنَّ المُستمِعَ شريكُ القائِلِ).[٣]

..

[١] يُنظر: ((آداب الصحبة)) لأبي عبد الرحمن السلمي.
[٢] الخَنَا في الكلامِ: أفحشُهُ (مَقاييس اللُّغة).
[٣] ((الحلية)) لأبي نعيم الأصبهاني.

قَالَ الشَّاعرُ:

مَن لي بإنسانٍ إذا أغضَبْتُهُ وجهِلْتُ كان الحِلمُ رَدَّ جوابِهِ

وتراهُ يُصغي للحديثِ بطَرفِه وبقَلبِه ولعلَّه أدرى به

وَقَالَ غيرُه:

وإليكَها ابنةَ ساعةٍ لا تلتقي إلَّا بسَمعٍ مُنصِتٍ أو مُنصِفِ

الأُسلوبُ الثَّاني: (البشَاشةُ فِي أثناءِ التَّكلُّمِ).

البَشَاشةُ لُغةً: هي طَلاقةُ الوَجهِ، وقد بَشِشْتُ به أَبَشُّ بَشاشةً، ورجُلٌ هَشٌّ بَشٌّ، أي: طَلْقُ الوَجهِ طيّبٌ.[1]

وقيل: أصلُ البَشاشةِ: اللُّطفُ بالإنسانِ عندَ قُدومِه، وإظهارُ السُّرورِ برُؤيتِه.[2]

وَالمَقصودُ مِن هَذا الأسلوبِ؛ أي: أنْ يَستقبلَ المَرءُ مَن يُكلِّمُه بِبشاشَةِ وجهٍ، وَأنْ يبدأَ كلامَه بذلكَ، فَفِيه خيرٌ عظيمٌ، فَقد يُؤجَرُ العبدُ بابتسامتِهِ فِي وجهِ أخيهِ، ويكسِبُ بذَلِكَ ثقةً وَحُبًّا لِمَن يُكلِّمُه.

إذْ هُو مِن الأساليبِ الَّتي لَا بُدَّ مِنها أثْنَاءَ التَّكلُّمِ.

ويُستثنى مِن ذَلكَ؛ في أثناءِ التَّكلُّمِ مَع مَن يُسيءُ الأدبَ فِي كلامِه، وسيأتِي التَّفصيلُ في بيانِ كيفيَّةِ التَّعاملِ مَع شَخصٍ كَهذا، بإذنِه تَعالى.

عن أبي ذَرٍّ رضِي اللهُ عنه قال: قال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَحقِرَنَّ مِن المعروفِ شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ)).[3]

---

[1] يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري.
[2] يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)).
[3] **أخرجه مسلم (٢٦٢٦).**

قال ابنُ عَلَّانَ: (أي: بوَجهٍ ضاحِكٍ مُستبشِرٍ، وذلك لِما فيه مِن إيناسِ الأخِ المُؤمِنِ، ودَفعِ الإيحاشِ عنه، وجَبرِ خاطِرِه، وبذلك يحصُلُ التَّأليفُ المطلوبُ بَينَ المُؤمِنينَ).[1]

والبَشاشةُ فِيهَا خيرٌ عظيمٌ مِن عدَّةِ نواحٍ.

قال ابنُ حِبَّانَ: (البَشاشةُ إدامُ العُلَماءِ، وسَجيَّةُ الحُكَماءِ؛ لأنَّ البِشرَ يُطفِئُ نارَ المُعانَدةِ، ويُحرِقُ هَيَجانَ المُباغَضةِ، وفيه تَحصينٌ مِن الباغي، ومَنجاةٌ مِن السَّاعي، ومَن بَشَّ للنَّاسِ وَجهًا لم يكنْ عندَهم بدونِ الباذِلِ لهم ما يَملِكُ).[2]

وَقد كانَ السَّلفُ _رحمهم اللهُ_ يُحِبُّونَ مَن يتَّسِم بهذَا السَّمت.

قال ابنُ المُبارَكِ: (إنَّه ليُعجِبُني مِن القُرَّاءِ كُلُّ طَلْقٍ مِضحاكٍ، فأمَّا مَن تلقاه بالبِشرِ، ويَلقاك بالعُبوسِ كأنَّه يَمُنُّ عليك بعَمِله؛ فلا أكثَر اللهُ في القُرَّاء مِثلَه).[3]

فَعلى المرءِ أنْ يُحسِنَ لأخِيهِ، وَإنْ شرعَ بالسَّلامِ أَو بردِّهِ؛ فَليكنْ ذلِكَ مَع ابتِسامَةٍ.

---

[1] ((دليل الفالحين)).
[2] يُنظر: ((روضة العقلاء)) لابن حبان.
[3] ((شعب الإيمان)) للبيهقي.

قَال تَعالَى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾

[النساء: 86]

قال السَّعديُّ _في تفسيرِ الآيةِ الكريمة_ : (التَّحيَّةُ هي: اللَّفظُ الصَّادِرُ مِن أحدِ المُتلاقِيَينِ على وَجهِ الإكرامِ والدُّعاءِ، وما يقترِنُ بذلك اللَّفظِ مِن البَشاشةِ ونَحوِها، وأعلى أنواعِ التَّحيَّةِ ما ورَد به الشَّرعُ مِن السَّلامِ ابتِداءً وردًّا، فأمَر تعالى المُؤمِنينَ أنَّهم إذا حُيُّوا بأيِّ تحيَّةٍ كانت أن يرُدُّوها بأحسَنَ منها لفظًا وبَشاشةً، أو مِثلِها في ذلك).

وَمِن الجديرِ بالذِّكرِ أنَّني تعرَّفتُ علَى أحدِهِم يُسمَّى بِصاحبِ الوجهِ البَشوشِ، وَذلِكَ لاعتيادِهِ عَلى هذهِ العادَّةِ المَحمُودةِ، وَقدْ قيلَ: مَن أكثرَ مِن شيءٍ عُرِفَ بِه.

قيل للأوزاعيِّ رحِمه اللهُ: ما كرامةُ الضَّيفِ؟ قال: طَلاقةُ الوَجهِ، وطِيبُ الحديثِ.[1]

[1] يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي.

وَقد قيلَ: تكلُّفُ البِشرِ والطَّلاقةِ، وتجنُّبُ العُبوسِ والتَّقطيبِ: مِن الوسائِلِ المُعينةِ على اكتِسابِ الأخلاقِ الحميدةِ.[1]

إنَّ للوجهِ نوراً، وهذا النورُ ينطفئ بالتعبُّس في وجه الآخرين.

وَقالَ بعضُهُم:

فلا زلنا نسمعُ حكايا النّاس، فهذا قاطع أخاهُ لكآبةِ وجهه، وكثرةِ تعبُّسه،

وذاكَ تناحرَ وتجادل مع صاحبه لملامحٍ في وجهه يُشعرُه كأنهُ عِبءٌ على صاحبه هذا.

وكم من العلاقات الزوجية انتهت بسبب التعبُّس، وقِلّة البشاشة بين المرأة والرجُل.

وهذا أمرٌ يجبُ الحذر منه،

وقد قالَ نبيُنا محمّد صلى الله عليه وسلم:

(ابتسامتُكَ في وجهِ أخيكَ صدقة) ..

هذا ابتسامة، فما بالُكَ لو وجدكَ تهشُّ وتبشُّ في وجهِهِ، وتُبدي لهُ السّرورَ والفرح.

---

[1] الدُّرر السَّنيَّة، موسوعة الأخلاق والسُلوكِ، فوائد البشاشة.

كيفَ يكونُ أجرُكَ ؟!

وأيضًا لابُدَّ أن نعلم أنَّ التعبُّس مُنافٍ للرَّحمةِ، واللِّين، ومُرادفٌ للغلظةِ والقَسوة.

وتأمَّل كيفَ يقولُ اللهُ سُبحانَه وتعالىٰ لنبيّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

ولو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانفضُّوا من حولك.

فالبشاشةُ أمرٌ حسنٌ لدوامِ العلاقات بين النّاس، وازدياد المحبّة بين المتحابين.

وتنبيهٌ لابُدَّ منه.

وهو: أنّه لا نقصدُ بالبشاشةِ، وطلاقةِ الوجهِ، الطَّيش، وكثرةَ التَّهرج،

فهذا أمرٌ خارجُ عن حدود الذوق والأدب،

فيجبُ على المرء أن يكونَ مُعتدلاً، يزنُ الأمُورَ بميزانها.

واختصرَ لكَ إمامٌ بارعٌ، وطبيبٌ للقلوب، بكلامٍ رائقٍ رائع حيثُ قالَ رحمه الله: (طَلاقةُ الوَجهِ والبِشرُ المحمودُ وسَطٌ بَينَ التَّعبيسِ والتَّقطيبِ وتصعيرِ الخدِّ وطيِّ البِشْرِ عن البَشَرِ، وبَينَ الاسترسالِ معَ كُلِّ أحدٍ؛ بحيثُ يُذهِبُ الهَيبةَ، ويُزيلُ الوَقارَ، ويُطمِعُ في الجانِبِ، كما أنَّ الانحِرافَ

الأوَّلَ يوقِعُ الوَحشةَ والبِغْضةَ والنُّفرةَ في قُلوبِ الخَلقِ، وصاحِبُ الخُلقِ الوَسطِ مَهيبٌ محبوبٌ، عزيزٌ جانِبُه، حبيبٌ لِقاؤُه. وفي صفةِ نبيِّنا: مَن رآه بديهةً هابه، ومَن خالَطه عِشرةً أحبَّه).[1]

وكلامهُ مفهومٌ منطقيٌّ، لا يحتاجُ إلىٰ مزيدِ إيضاحٍ، وبيَان، وكمَا قيلَ: لا عطرَ بعدَ عروس.

وَقال أيضًا، فِي بيانِ هديهِ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ_ فِي هَذا الشَّأنِ:

(كان جُلَّ ضحِكِه التَّبسمُّ، بل كُلُّه التَّبسُّمُ، فكان نهايةَ ضحِكِه أن تبدوَ نواجِذُه، وكان يضحَكُ ممَّا يُضحَكُ منه، وهو ممَّا يُتعجَّبُ مِن مِثلِه، ويُستغرَبُ وُقوعُه ويُستندَرُ).[2]

..

[1] ((مدارج السالكين)).
[2] ((زاد المعاد)).

قَالَ الشَّاعرُ:

الْقَ بالبِشرِ مَن لَقِيتَ مِن النَّا سِ جميعًا ولاقِهم بالطَّلاقهْ

ودَعِ التِّيهَ والعُبوسَ عن النَّا سِ فإنَّ العُبوسَ رأسُ الحَماقهْ

كُلَّما شِئْتَ أن تُعاديَ عادَيـ ـتَ صديقًا وقد تَعِزُّ الصَّداقهْ

وَقال غيرُه:

خالِقِ النَّاسَ بخُلقٍ واسِعٍ لا تكُنْ كَلبًا على النَّاسِ تهِرْ

والقَهم منك ببِشرٍ ثُمَّ كُنْ للذي تسمَعُ منهم مُغتَفِرْ

وَقالَ غيرُه:

أزورُ خليلي ما بدا ليَ هَشُّه وقابَلني منه البَشاشةُ والبِشرُ

فإن لم يكنْ هَشٌّ وبَشٌّ تركْتُه ولو كان في اللُّقيا الوِلايةُ والبشرُ

وحَقُّ الذي ينتابُ داريَ زائِرًا طعامٌ وَبِرٌّ قد تَقدَّمه بشرُ

وَقالَ غيرُه:

إذا المرءُ وافى منزِلًا منك قاصِدًا قِراك وأرمَتْه لديك المسالِكُ

فكنْ باسِمًا في وَجهِه مُتهلِّلًا وقُلْ مرحبًا أهلًا ويومٌ مُبارَكُ

وقدِّم له ما تستطيعُ مِن القِرى عَجولًا ولا تبخَلْ بما هو هالِكُ

فقد قيل بَيتٌ سالِفٌ مُتقدِّمٌ تداوَله زيدٌ وعَمرٌو ومالِكُ

بَشاشةُ وَجهِ المرءِ خَيرٌ مِن القِرى فكيف بمَن يأتي به وَهْو ضاحِكُ

الأسلوبُ الثَّالثُ: (الصَّمتُ).

الصَّمتُ: السُّكوتُ، مِن: صَمَت يَصمُتُ صَمتًا وصُموتًا وصُماتًا: سكَت. وأصمَتَ مِثلُه، وأصلُ (صمت): يدُلُّ على إبهامٍ وإغلاقٍ.[1]

وَقَد قيل:

الصَّمتُ إمساكٌ عن قولِ الباطِلِ دونَ الحَقِّ.[2]

وقيل: هو (الإمساكُ عن الكلامِ الذي لا خيرَ فيه).[3]

قَال تَعالى:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

[ق: 18]

قال ابنُ كثيرٍ: (مَا يَلْفِظُ أي: ابنُ آدَمَ مِنْ قَوْلٍ أي: ما يتكَلَّمُ بكَلِمةٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ أي: إلَّا ولها من يراقِبُها مُعتَدٌّ لذلك يكتُبُها، لا يترُكُ كَلِمةً ولا حَركةً، كما قال تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار: ١٠-١٢]) .

---

[1] تهذيب اللُّغة، للأزهري.
[2] الكُلِّيَّات للكفوي.
[3] التَّنوير شرح الجامع الصَّغير، للصنعاني.

٠وقال الشَّوكاني: (ما يَتكلَّم مِن كَلامٍ فَيلفِظُه ويرميه مِن فِيه إلَّا على ذلك اللَّافِظِ مَلَكٌ يَرقُبُ قَولَه ويَكتُبُه، مُعَدٌّ للكتابةِ مُهيَّأٌ له).[1]

مَسألة: مَا الفرقُ بينَ الصَّمتِ والسُّكوتِ؟

الصَّمتُ مَحمودٌ مُطلقًا، وليسَ كالسُّكوت، فالصَّمتُ امتناعُكَ عَنِ الكلامِ مَع القُدرةِ عَلى التَّكلُّم، بلْ مَع شهوتِكَ لِلكلامِ.

فَقد تُحاورُ شَخصًا، يُسيءُ لكَ بالكلامِ، فَتُمسِكُ عَن الكلامِ رَغبةً مِنكَ وَردًّاً عَلى كلامِه، فالصَّمتُ أقوَى ردٍّ لِلكلامِ المُسيءِ.

وأمَّا السُّكوت؛ فَقد يكونُ ناتِجًا عنِ الخَوف..

فَيُقالُ: سكتَ مِن شدَّةِ الخَوفِ، وَلا يُقالُ: صَمتَ مِن شدَّة الخَوف.

قال الرَّاغِبُ: (الفَرْقُ بَيْنَ الصَّمتِ والسُّكوتِ: أنَّ الصَّمتَ أبلغُ؛ لأنَّه قد يُستعمَلُ فيما لا قُوَّةَ فيه للنُّطقِ، وفيما له قُوَّةُ النُّطقِ؛ ولهذا قيل لِما لا نُطْقَ له: الصَّامِتُ والمُصمَتُ، والسُّكوتُ: يُقالُ لِما له نُطقٌ، فتُرِك استعمالُه[2].

واللهُ أعلم.

---

[1] فتح القدير.
[2] الذَّريعة، للرَّاغبِ الأصفهانيِّ.

وَقد يكونُ الكلامُ خيرًا مِن الصَّمتِ إذَا دلَّ عَلى خَيرٍ.

فقد جَاء في الصَّحيحين عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو ليَصمُتْ)).

قال ابنُ عبدِ البَرّ: (وفي هذا الحديثِ آدابٌ وسُنَنٌ، منها التَّأكيدُ في لُزومِ الصَّمتِ، وقولُ الخيرِ أفضَلُ من الصَّمتِ؛ لأنَّ قولَ الخيرِ غَنيمةٌ، والسُّكوتَ سلامةٌ، والغنيمةَ أفضَلُ من السَّلامةِ).[1]

وقال النَّوويُّ: (وأمَّا قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصمُتْ)) فمعناه: أنَّه إذا أراد أن يتكلَّمَ؛ فإن كان ما يتكلَّمُ به خيرًا محقَّقًا يثابُ عليه واجبًا أو مندوبًا، فلْيتكلَّمْ، وإن لم يظهَرْ له أنَّه خيرٌ يثابُ عليه فليُمسِكْ عن الكلامِ، سواءٌ ظهَر له أنَّه حرامٌ أو مكروهٌ أو مباحٌ مُستوي الطَّرفَينِ؛ فعلى هذا يكونُ الكلامُ المباحُ مأمورًا بتركِه، مندوبًا إلى الإمساكِ عنه؛ مخافةً من انجرارِه إلى المحرَّمِ أو المكروهِ، وهذا يقعُ في العادةِ كثيرًا أو غالبًا).[2]

---

[1] كَما جاءَ في (التَّمهيد).
[2] شرحُ النَّوويّ عَلى مُسلِم.

وجاءَ فِي صحيحِ البُخاريّ عن سَهلِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من يَضمَنْ لي ما بَيْنَ لَحْيَيه وما بَيْنَ رِجلَيه أضمَنْ له الجنَّةَ)).

قال ابنُ عبدِ البَرّ: (في هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ أكبَرَ الكبائِرِ إنَّما هي من الفَمِ والفَرجِ، وما بَيْنَ اللَّحيَينِ الفَمُ، وما بَيْنَ الرِّجلَينِ الفَرجُ، ومن الفَمِ ما يتولَّدُ من اللِّسانِ وهو كَلِمةُ الكُفرِ، وقَذفُ المحصَناتِ، وأخذُ أعراضِ المُسلِمين، ومن الفَمِ أيضًا شُربُ الخَمرِ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ ظُلمًا، ومن الفَرجِ الزِّنا واللِّواطُ).[1]

وَقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجوهِهم أو على مَناخِرِهم إلَّا حصائِدُ ألسنَتِهم؟)).[2]

وفيه تحريضٌ على جهادِ النَّفسِ وقَمعِها عن الكلامِ فيما يُؤذيها ويُرديها؛ فإنَّه جعَل أكثَرَ دُخولِ النَّاسِ النَّارَ بسبَبِ ألسنَتِهم.[3]

وَخيرُ مَا أكرمَ اللهُ عَلى الإنسانِ الصَّمت.

---

[1] كَما فِي (الاستذْكار).
[2] أخرجَهُ التِّرمذيُّ.
[3] شرحُ الأربعين النَّوويَّة لابنِ دقيق العيد.

سُئِل ابنُ المبارَكِ: (ما خيرُ ما أُعطِيَ الإنسانُ؟ فقال: غريزةُ عَقلٍ، قيل: فإنْ لم يكُنْ؟ قال: أدبٌ حَسَنٌ، قيل: فإنْ لم يكُنْ؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيرُه، قيل: فإنْ لم يكُنْ؟ قال: صمتٌ طويلٌ، قيل: فإنْ لم يكُنْ؟ قال: موتٌ عاجِلٌ).[1]

والحِكمةُ جلُّها فِي الصَّمتِ.

عن وُهَيبِ بنِ الوردِ رحمه اللهُ، قال:(كان يقالُ: الحِكمةُ عَشَرةُ أجزاءٍ: فتِسعةٌ منها في الصَّمتِ، والعاشِرةُ عُزلةُ النَّاسِ).[2]

واختُصِرَ هَذا البابُ فِي قولِ الحَسنِ _رحمهُ اللهُ_ قَال: إملاءُ الخيرِ خيرٌ من الصَّمتِ، والصَّمتُ خيرٌ من إملاءِ الشَّرِّ).[3]

وَقد قيلَ: يحتاجُ المرءُ لثلاثِ سِنينَ لتعلُّمِ الكَلامِ، بَينمَا يحتاجُ لِستِّينَ سنةٍ لِتعلُّمِ الصَّمتِ.

فالصَّمتُ لُغةٌ لَا يُحسنُ أغلبُ النَّاسِ إتقَانَها.

---

[1] المُعجم، لابنِ المُقرئ.
[2] رواهُ ابنُ أبِي الدُّنيا في (الصَّمت).
[3] البيانُ والتَّبيين (للجاحظ).

وعن أبي الذَّيَّالِ، قال: تعلَّمِ الصَّمتَ كما تعلَّمُ الكلامَ، فإن يكُنِ الكلامُ يَهديك فإنَّ الصَّمتَ يَقيك، ألَا في الصَّمتِ خَصلتانِ: تدفَعُ به جَهلَ من هو أجهَلُ منك، وتعلَمُ به مِن عِلمِ مَن هو أعلَمُ منك.[1]

وَهذَا مِن خيرِ مَا قرأتُ فِي الصَّمت.

وقال يحيى بنُ أبي كثيرٍ: (خصلتانِ إذا رأيتَهما في الرَّجُلِ فاعلَمْ أنَّ ما وراءَهما خيرٌ منهما: إذا كان حابسًا للسانِه، يحافِظُ على صلاتِه).[2]

وَقد ينتجُ عَن الكَلامِ النَّدمَ، أكثرَ مِمَّا ينتجُ عنِ الصَّمت، بلِ النَّدمُ الَّذي نتجَ عَنِ الكلامِ يصعبُ عَلى المَرءِ الرُّجوعُ عَنهُ.

وعن المسيبِ بنِ واضحٍ، قال: سمعْتُ الشَّافعيَّ يُوصي شابًّا مِن أصحابِه يقولُ له: (الزَمِ الصَّمتَ إلى أنْ يلزمَك التكلُّمُ؛ فإنَّما أكثرُ مَن يندَمُ إنَّما يندمُ إذا هو نطَق، وقلَّ مَن يندمُ إذا سكَت، واعلَمْ بأنَّ الرجوعَ عن الصَّمتِ إلى الكلامِ أحسنُ مِن الرُّجوعِ عن الكلامِ إلى الصَّمتِ، والعطيةُ بعدَ المنعِ أحسنُ مِن المنعِ بعدَ العطيةِ).[3]

وَحسبُ مَن يبحثُ ويسألُ أن يعلمَ أنَّ هَذا السَّمتَ مِن صفاتِ خيرِ البشرِ _صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم_ فَقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طويلَ

---

[1] رواهُ ابنُ أبي عَاصم فِي (الزُّهد).
[2] الصَّمتُ، لابنِ أبي الدُّنيا.
[3] تاريخُ دمشق، لابنِ عساكر.

الصَّمتِ، كثيرَ الذِّكرِ، قليلَ الضَّحِكِ؛ فعن سِماكِ بنِ حَربٍ قال: ((قلتُ لجابِرِ بنِ سَمُرةَ: أكنتَ تجالِسُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: نعم، وكان طويلَ الصَّمتِ، قليلَ الضَّحِكِ، وكان أصحابُه يَذكُرون عندَه الشِّعرَ، وأشياءَ من أمورِهم، فيَضحَكون، ورُبَّما تبسَّم)).[1]

[1] رواه الترمذي (٢٨٥٠) مختصرًا، وأحمد (٢٠٨١٠) واللفظ له.

قال الشَّاعِرُ:

صَبرًا جَميلًا على ما نابَ مِن حَدَثٍ والصَّبرُ ينفعُ أحيانًا إذا صَبَروا

الصَّبرُ أفضَلُ شَيءٍ تَستَعينُ به على الزَّمانِ إذا ما مَسَّك الضَّرَرُ

وَقال غيرُه:

إنّي رَأيتُ وفي الأيَّامِ تَجرِبةٌ للصَّبرِ عاقِبةً مَحمودةَ الأثَرِ

وقَلَّ مَن جَدَّ في شَيءٍ يُحاوِلُه فاستَصحَبَ الصَّبرَ إلَّا فازَ بالظَّفَرِ

وقَالَ غيرُه:

وإذا عَرَتْك بَليَّةٌ فاصبِرْ لها صَبرَ الكريمِ؛ فإنَّه بك أعلَمُ

وإذا شَكوتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّما تَشكو الرَّحيمَ إلى الذي لا يرحَمُ

وَقال غيرُه:

تَعَزَّ بحُسنِ الصَّبرِ عن كُلِّ هالكٍ ففي الصَّبرِ مَسلاةُ الهُمومِ اللَّوازِمِ

إذا أنت لم تَسْلُ اصطِبارًا وخَشيةً سَلوتَ على الأيَّامِ مِثلَ البَهائِمِ

الأُسلوبُ الرَّابع: (التَّغافُل).

لُغةً: الغَفلةُ: غَيبةُ الشَّيءِ عن بالِ الإنسانِ وعَدَمُ تذكُّرِه له. وأغفَلْتُ الشَّيءَ إغفالًا: تركتُه إهمالًا من غيرِ نِسيانٍ. وتغافَل: أرى من نفسِه ذلك وليس به، والتَّغافُلُ: تعمُّدُ الغفلةِ، أي: بالسَّهوِ وقِلَّةِ التَّيقُّظِ.[1]

وَقد قيلَ:

التَّغافُلُ: هو وَضعُ الغفلةِ في موضِعِها الذي يُذَمُّ فيه البحثُ والتَّقَصِّي؛ فهو فَهمٌ للحقيقةِ، وإضرابٌ عن الطَّيشِ، واستعمالٌ للحِلمِ، وتسكينٌ للمَكروهِ.[2]

وَلا بُدَّ من معرفةِ الفرقِ بينَ التَّغافلِ، والغفلةِ؛ فإنَّ التَّغافلَ على وزنِ (تفاعُل) أي: قصدُ الفعلِ وتعمُّده، وهُو فعلٌ يُمدحُ فاعلُهُ، فَقد يتعرَّضُ المرءُ لِكلامٍ صدَرَ مِن أَحمق، فيُعرِضُ عَنه؛ أي: يتغافَلُ، وَقد يتغافَلُ المرءُ عَن عيوبِ النَّاسِ، فكلٌّ مِنَّا لديهِ جوانبُ سلبيَّة بجانبِ الجوانبِ الإيجابيَّة، فَقد تُصاحِبُ شخصًا تكرهُ مِنهُ خُلُقًا، وتُحبُّ مِنه آخَر، فتغافُلُكَ عَن خُلُقٍ تكرهُهُ في صاحِبِكَ مَحمودٌ.

---

[1] يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور.
[2] (الأخلاق والسِّيَر) لابن حزم.

وأمَّا الغَفلةُ؛ فإنَّها مَذمومةٌ، فَيُقالُ للعاصِي الَّذي لَا يُبالي بِتلكَ المَعصيةِ، ويُجاهِرُ بِها: غافِلٌ.

وَقد قيلَ في الفرقِ بينَهُما:

أنَّ الغفلةَ تقعُ من الإنسانِ؛ حيث ينبغي عليه أن يتحَفَّظَ وأن ينتَبِهَ، وقد يكونُ مَنشؤُها الجَهلَ، أمَّا التَّغافُلُ فهي غَفلةٌ وقعت عن قَصدٍ وإرادةٍ وتيقُّظٍ وعلمٍ، فحُمِد التَّغافُلُ وذُمَّت الغفلةُ.[1]

قَال تَعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

[199 :سورة الأعراف]

قال السَّعديُّ _في تفسيرِ الآيةِ_: (أي: ما سمَحَت به أنفُسُهم، وما سَهُل عليهم من الأعمالِ والأخلاقِ، فلا يُكَلِّفُهم ما لا تسمَحُ به طبائِعُهم، بل يَشكُرُ مِن كُلِّ أحدٍ ما قابله به من قَولٍ وفِعلٍ جميلٍ، أو ما هو دونَ ذلك، ويتجاوَزُ عن تقصيرِهم، ويغُضُّ طَرفَه عن نَقصِهم، ولا يتكبَّرُ على الصَّغيرِ لصِغَرِه، ولا ناقِصِ العقلِ لنَقصِه، ولا الفقيرِ لفَقرِه، بل يعامِلُ الجميعَ باللُّطفِ والمقابلةِ بما تقتضيه الحالُ، وتنشَرِحُ له صدورُهم).

وَقال تَعَالى:

---

[1] (الأخلاقُ والسِّيَر) لابن حزم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحجرات: 12]

قال السَّعديُّ _في تفسيرِ الآيةِ_: (وَلَا تَجَسَّسُوا أي: لا تُفَتِّشوا عن عوراتِ المُسلِمينَ، ولا تتَّبِعوها، واترُكوا المسلِمَ على حالِه، واستَعمِلوا التَّغافُلَ عن أحوالِه التي إذا فُتِّشَت ظَهَر منها ما لا ينبغي).

وَقد صدقَ _رحمهُ اللهُ تبارَكَ تعَالى_ حينمَا قَال: (واستَعمِلوا التَّغافُلَ عن أحوالِه التي إذا فُتِّشَت ظَهَر منها ما لا ينبغي) لأنَّ النَّاس علَى اختلافِ عاداتِهِم وَمفاهيمِهم وطريقةِ تفكيرِهِم؛ ليسُوا سواءً، فَقد تكرهُ أنتَ خُلُقًا يُحبُّه غيرُكَ، وَقد يُعجِبُكَ خُلُقٌ ينفِرُ مِنهَا غيرُكَ.

وعن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ أنَّ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عنها- زَوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالت: ((دخل رهطٌ من اليهودِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: السَّامُ عليكم، قالت عائشةُ: ففَهِمْتُها فقُلتُ: وعليكم السَّامُ واللَّعنةُ! قالت: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَهلًا يا عائشةُ! إنَّ

اللهَ يحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه. فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أوَلم تسمَعْ ما قالوا؟ قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قلتُ: وعليكم)).[1]

وَهُوَ خيرُ حدَثٍ؛ يُبيّنُ مَعنى التَّغافُلِ تطبيقيًّاً، وَخيرُ كلَامٍ يُستنبَطُ مِن خَيرِ البَشرِ يُقالُ لِسُفهاءِ العقولِ، وَخيرُ انتقاءٍ فِي هذا البابِ.

وقد استُنبِطَ من هذا استحبابُ تغافُلِ أهلِ الفَضلِ عن سَفَهِ المُبطِلين إذا لم يترتَّبْ عليه مفسَدةٌ.[2]

وقد جمعَ محمَّدُ بنُ عَلِيّ بنِ الحُسَينِ صلاحَ شأنِ الدُّنيا بحذافيرِها في كَلِمَتينِ، فقال: (صلاحُ شأنِ جميعِ التَّعايُشِ والتَّعاشُرِ مِلءُ مِكيالٍ: ثُلُثاه فِطنةٌ، وثُلُثُه تغافُلٌ)، فلم يجعَلْ لغَيرِ الفِطنةِ نصيبًا من الخيرِ، ولا حَظًّا في الصَّلاحِ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يتغافَلُ إلَّا عن شيءٍ قد فَطِن له وعَرَفه.[3]

وَقد يأتِي التَّغافُلُ مِفتاحًا لِلخيرِ، مِغلاقًا للشَّرِّ.

قال الأعمَشُ: (جوابُ الأحمقِ السُّكوتُ عنه، والتَّغافُلُ يُطفِئُ شَرًّا كثيرًا، ورِضا المتجَنِّي غايةٌ لا تُدرَكُ، واستِعطافُ المحِبِّ عونٌ للظَّفَرِ، ومن غَضِب على ما لا يقدِرُ عليه طال حُزنُه).[4]

---

[1] أخرجهُ البخاريُّ.
[2] (الآدابُ الشَّرعيَّة والمنحُ المرعيَّة) لابنِ مفلح.
[3] (البيانُ والتَّبيُّن) لِلجاحظ.
[4] (شعب الإيمان) لِلبيهقيّ.

وَلأهلِ العلمِ جملةٌ مِن الأقوالِ فِي هَذا البابِ..

فَقد قالَ الشَّافعيُّ: (اللَّبيبُ العاقِلُ هو الفَطِنُ المتغافِلُ).[1]

وقال أحمدُ بنُ حَنبَلٍ: (العافيةُ عَشرةُ أجزاءٍ كُلُّها في التَّغافُلِ).[2]

وقال ابنُ عَقيلٍ الحَنبليُّ: (تغافلْ عن هفَواتِ النَّاسِ؛ فذلك داعيةٌ لدوامِ العِشرةِ، وسلامةِ الوُدِّ، وإذا كرِهْتَ من غيرِك خُلُقًا فلا تأتِه، وإذا حمِدْتَه فتخَلَّقْ به).[3]

وقال عبدُ الرَّحمنِ السَّعديُّ: (من تغافل عن عُيوبِ النَّاسِ، وأمسَك لِسانَه عن تتبُّعِ أحوالِهم التي لا يحبُّون إظهارَها؛ سَلِم دينُه وعِرْضُه، وألقى اللهُ محبَّتَه في قلوبِ العبادِ، وسَتَر اللهُ عورتَه؛ فإنَّ الجزاءَ من جِنسِ العَمَلِ، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ).[4]

---

[1] (المُعجَم) لابنِ المُقرئ.
[2] (الآدابُ الشَّرعيَّة) لابنِ مفلح.
[3] الآدابُ الشَّرعيَّة) لابنِ مفلح.
[4] (الفواكهُ الشَّهيَّة).

وَمِن الأحاديثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ حديثٌ يرويهِ أبو هُريرةَ _رضيَ اللهُ عَنهُ_

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَفرَكْ مُؤمِنٌ مُؤمِنةً، إن كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ)).[1]

قال السَّعديُّ: (في هذا الحديثِ فائدتانِ عظيمتانِ؛ إحداهما: الإرشادُ إلى معاملةِ الزَّوجةِ والقريبِ والصَّاحِبِ والمعامِلِ، وكُلِّ من بينَك وبينَه عُلقةٌ واتصالٌ، وأنَّه ينبغي أن تُوطِّنَ نفسَك على أنَّه لا بدَّ أن يكونَ فيه عيبٌ أو نقصٌ أو أمرٌ تكرهُه؛ فإذا وجَدْتَ ذلك فقارِنْ بَينَ هذا وبينَ ما يجِبُ عليك أو ينبغي لك من قوَّةِ الاتصالِ والإبقاءِ على المحبَّةِ، بتذكُّرِ ما فيه من المحاسِنِ والمقاصِدِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، وبهذا الإغضاءِ عن المساوئِ وملاحظةِ المحاسِنِ تدومُ الصُّحبةُ والاتِّصالُ، وتتِمُّ الرَّاحةُ وتحصُلُ لك.

الفائدةُ الثَّانيةُ: وهي زوالُ الهَمِّ والقَلَقِ، وبقاءُ الصَّفاءِ، والمداومةُ على القيامِ بالحُقوقِ الواجبةِ والمستحَبَّةِ، وحصولُ الرَّاحةِ بَينَ الطَّرَفينِ، ومَن لم يسترشِدْ بهذا الذي ذكرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بل عكَس القضيَّةَ، فلَحَظ المساوِئَ، وعَمِيَ عن المحاسِنِ؛ فلا بدَّ أن يقلَقَ، ولا بدَّ أن

[1] أخرجهُ الإمامُ مُسلم في صحيحِه.

يتكدَّرَ ما بينه وبينَ مَن يتَّصِلُ به من المحبَّةِ، ويتقطَّعَ كثيرٌ من الحُقوقِ التي على كُلٍّ منهما المحافظةُ عليها).[1]

وَينبغي لِلزَّوجينِ أَنْ يُتقِنوا هَذا الأسلوبَ، وألَّا يُدقِّقوا في بعضِ الأمُورِ الَّتي قَد تُفضِي إلى النِّزاعِ بينَهُم.

فقد قالت المرأةُ تمدَحُ زَوجَها: (زوجي إذا دَخَل فَهِد، وإذا خَرَج أسِدَ، ولا يسألُ عمَّا عَهِد).[2]

قولُها: (زوجي إذا دَخَل فَهِد) تصِفُه بكثرةِ النَّومِ والغَفلةِ في منزِله على وجهِ المدحِ له، وذلك أنَّ الفهدَ كثيرُ النَّومِ، يقالُ: أنوَمُ من فَهدٍ، والذي أرادت: أنَّه ليس يتفقَّدُ ما ذهب من مالِه، ولا يلتَفِتُ إلى معايبِ البيتِ وما فيه، كأنَّه ساهٍ عن ذلك، وممَّا يُبَيِّنُه قولُها: (ولا يسألُ عمَّا عَهِد) تعني: عمَّا كان عندي قَبلَ ذلك.[3]

---

[1] (الوسائلُ المفيدةُ للحياةِ السَّعيدةِ).

[2] أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨) مطولا من حديث عائشة رضي الله عنها.

[3] (شرحُ صحيحِ البُخاري) لابنِ بطَّال.

قَالَ الشَّاعرُ:

فالبَسِ النَّاسَ ما استطَعْتَ على النَّقصِ وإلَّا لم تستَقِمْ لك خُلَّه

عِشْ وَحيدًا إن كنتَ لا تقبَلُ العُذرَ وإن كنتَ لا تجاوِزْ زَلَّه

وَقالَ غيرُه:

أُغمِضُ عيني عن صديقي تغافُلًا كأنّي بما يأتي من الأمرِ جاهِلُ

وما بي جَهلٌ غَيرَ أنَّ خليقتي تُطيقُ احتمالَ الكُرهِ فيما يحاوِلُ

وَقالَ غيرُه:

البَسْ أخاك على تصَنُّعِه فلرُبَّ مفتَضَحٍ على النَّصِّ

ما كِدتُ أفحَصُ عن أخي ثِقةٍ إلَّا ذمَمْتُ عواقِبَ الفَحصِ

وَقالَ غيرُه:

وإذا الكريمُ أتيتَه بخديعةٍ فرأيتَه فيما تحِبُّ يُسارِعُ

فاعلَمْ بأنَّك لم تخادِعْ جاهِلًا إنَّ الكريمَ بفَضلِه يتخادَعُ

وَقالَ غيرُه:

تغافَلْ فليس السَّرْوُ[1] إلَّا التَّغافُلُ

وليس سقوطُ القَدْرِ إلَّا التَّعاقُلُ

ولا تتجاهَلْ إن مُنِيتَ بجاهِلٍ

فليس فسادُ الجاهِ إلَّا التَّجاهُلُ

ولا تتطاوَلْ إنْ تطاوَلَ أحمَقٌ

فرأسُ حماقاتِ الرِّجالِ التَّطاوُلُ

[1] السَّرْوُ: المروءةُ والشَّرَفُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٣٧٧).

الأسلوبُ الخَامِس: (حِفظُ اللِّسانِ).

الحِفظُ لُغةً: مصدَرُ قَولِهم: حَفِظ يَحفَظُ، وتدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ، يقالُ: حَفِظتُ الشَّيءَ حِفظًا.[1]

واللِّسانُ لُغةً: هو جارِحةُ الكلامِ، وقد يُكنى به عن الكَلِمةِ فتُؤَنَّثُ حينَئذٍ، واللِّسْنُ: الكلامُ واللُّغةُ، واللَّسَنُ بالتَّحريكِ: الفَصاحةُ؛ يُقالُ لكُلِّ قومٍ لِسْنٌ: أي: لُغةٌ يتكَلَّمون بها، واللِّسانُ: اللُّغةُ، قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ [الروم: ٢٢] ، ومن ذلك قولُهم: فلانٌ يتكَلَّمُ بلِسانِ قَومِه. أي: بلُغتِهم، ولَسَنَه: كَلَّمه، ولَسَنَه: أخَذَه بلِسانِه، ولِسانُ القومِ: المتكَلِّمُ بلسانِهم، ولسانُ الميزانِ: عَذَبَتُه، ولسانُ النَّارِ: ما يتشَكَّلُ منها على شَكلِ اللِّسانِ.[2]

وَقد قيلَ: حِفظُ اللِّسانِ هو (أن يصونَ المرءُ لِسانَه عن الكَذِبِ، والغِيبةِ والنَّميمةِ، وقولِ الزُّورِ، وغيرِ ذلك ممَّا نهى عنه الشَّارِعُ الحكيمُ).[3]

وَالمقصُود مِن هَذا البابِ = هو حفظُ اللِّسانِ مِمَّا نهى اللهُ، وَمِنها:

---

[1] ((مقاييس اللغة)) لابن فارس.

[2] يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢١٩٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٣٨٥).

[3] ((نضرة النعيم)) لعدد من المختصين.

١* الغِيبةُ والنَّميمَةُ = مِن آفاتِ اللِّسان.

٢* الكَذبُ = وَحِفظُه يكونُ بتعويدِ النَّفسِ على الصِّدق.

٣* الشَّتائمُ والسُّخريةُ = وهَذه الأَساليبُ لا يتَّخذُها منهجًا يسيرُ عليهِ بالتَّواصُل سِوى سُفهاءِ العُقُول.

٤* الكلَامُ علَى اللهِ بغيرِ علمٍ = كأن يُفتي بغيرِ علمٍ، ويُنسِبُ ذلكَ إلى الشَّرع، وهذهِ طامَّة، وَهي مِمَّا يدعُو إليها الشَّيطان، قَال تعالى: "إِنَّمَا يأمُرُكُم بالسُّوءِ والفحْشاءِ وَأنْ تَقُولُوا عَلى اللهِ مَا لَا تَعلَمُونَ"

٥* الثَّرثرةُ = الوقوعُ في كثيرٍ من المَشاكل.

٦* النَّصيحةُ لمَن يكُونُ علَى خطأٍ فِي العَلن = فَمَا زاد ذَلِكَ إلَّا دمارًا عائدًا إلى النَّاصح، ورُبَّما تعدَّى الدَّمارُ إلَى مَن لَا علاقةَ لهُ بذلِكَ.

٧* بيانُ فصاحةِ اللِّسانِ بتكلُّفٍ وتعنُّت = وجَاء ذكرُ ذلِكَ في الحديثِ النَّبويّ (المُتشدِّقونَ).

وَغير ذَلِك الكَثير مِن الصِّفاتِ والأساليبِ الَّتي يجبُ عَلى المرءِ الابتعادُ عَنها بُعدَ المَشرقينِ مِنَ المَغرِبَين.

قَالَ تَعالَى:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

[الإسراء: 53]

قال ابنُ كثيرٍ _في تفسيرِه_: (يأمُرُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأمُرَ عبادَ اللَّهِ المُؤمِنين أن يقولوا في مخاطباتِهم ومحاوراتِهم الكلامَ الأحسَنَ والكَلِمةَ الطَّيِّبةَ؛ فإنَّهم إذا لم يفعلوا ذلك نزغ الشَّيطانُ بَيْنَهم، وأخرَج الكلامَ إلى الفَعالِ، ووقع الشَّرُّ والمخاصمةُ والمقاتلةُ؛ فإنَّ الشَّيطانَ عَدُوٌّ لآدمَ وذُرِّيَّتِه من حينِ امتَنَع من السُّجودِ لآدَمَ، فعداوتُه ظاهرةٌ بَيِّنةٌ؛ ولهذا نهى أن يشيرَ الرَّجُلُ إلى أخيه المُسلِمِ بحديدةٍ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ في يدِه، أي: فرُبَّما أصابه بها).

وَقال _جلَّ جلالُه_: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

[سورة المؤمنون: 3]

قال السَّعديُّ _في تفسيرِه_: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ وهو الكلامُ الذي لا خيرَ فيه ولا فائدةَ، مُعْرِضُونَ رغبةً عنه، وتنزيهًا لأنفُسِهم، وترفُّعًا عنه، وإذا مرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِرامًا، وإذا كانوا

مُعرِضين عن اللَّغوِ فإعراضُهم عن المحَرَّمِ مِن بابِ أَولى وأحرى، وإذا مَلَك العبدُ لِسانَه وخَزَنه إلَّا في الخيرِ، كان مالِكًا لأمرِهِ) .

.....

وقدْ حثَّ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علَى حفظِ اللِّسانِ مِمَّا يأخُذُ بالمرءِ إلى التَّهلُكة.

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما النَّجاةُ؟ قال: أمسِكْ عليك لسانَك، ولْيَسَعْك بيتُك، وابكِ على خطيئتِك)).[1]

(«أمسِك عليك لسانَك»: أي: لا تُجْرِه إلَّا بما يكونُ لك لا عليك، وكان الظَّاهِرُ أن يقالَ: حِفْظُ اللِّسانِ، فأخرَجَه على سبيلِ الأمرِ المُقتضي للتَّحقيقِ؛ مَزيدًا للتَّقريرِ. وقيل: الحديثُ من أسلوبِ الحكيمِ؛ فإنَّ السُّؤالَ عن حقيقةِ النَّجاةِ، والجوابُ بسَبَبِها؛ لأنَّه أهَمُّ).[2]

وَالكلامُ الَّذي في فَمِكَ إذَا لم يكُن خيرًا؛ فَلا تتَفوَّه بِه.

---

[1] الترمذي (٢٤٠٦).
[2] (دليلُ الفالحِين) لابن علَّان.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: ((قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن كان يُؤمِنُ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو ليَصمُتْ)).[1]

في هذا الحديثِ نَصٌّ صريحٌ على أنَّه لا ينبغي أن يتكَلَّمَ إلَّا إذا كان الكلامُ خيرًا، وهو الذي ظهَرَت له مصلحتُه، ومتى شَكَّ في ظهورِ المصلحةِ فلا يتكَلَّمْ.

وقال الشَّافعيُّ: (إذا أراد الكلامَ فعليه أن يُفَكِّرَ قبلَ كَلامِه، فإن ظهَرَت المصلحةُ تكَلَّم، وإن شَكَّ لم يتكَلَّمْ حتى تَظهَرَ).[2]

وَلا بُدَّ للعاقلِ أن يُدرِكَ خطورةَ مَا يتفوَّه بِه من الشَّرِّ، وَألَّا يُحقِّرَ مِن المعروفِ على لِسانِه شيئًا.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، ((عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: إنَّ العَبدَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللَّهِ، لا يُلقي لها بالًا، يَرفَعُه اللَّهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبدَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوي بها في جَهَنَّمَ)).[3]

وَالكلامُ كالدَّواءِ، ونفعُهُ فِي قلَّته.

---

[1] أخرجه البخاري (٦٠١٨).
[2] (الأذكار) للنَّوويّ.
[3] أخرجَهُ البُخَاريُّ (٦٤٧٨).

قال عَمرُو بنُ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عنه: (الكَلامُ كالدَّواءِ؛ إن أقلَلْتَ منه نَفَع، وإن أكثَرْتَ منه قَتَل).[1]

وَتعويدُ اللِّسانِ علَى ذكرِ اللهِ تعالَى خيرُ إعانةٍ عَلى حفظِه.

قال مالِكُ بنُ دينارٍ: (كان الأبرارُ يتواصَون بثلاثٍ: بسَجنِ اللِّسانِ، وكَثرةِ الاستِغفارِ، والعُزلةِ).[2]

وإنْ رُزِقَ المرءُ بحفظِ اللِّسانِ فَهو عَلى خيرٍ عظيمٍ.

قال ابنُ بطَّةَ العُكبَريُّ: (علامةُ من أراد اللَّهُ به خيرًا، وكان ممَّن سبَقَت له مِن مولاه الكريمِ عنايةٌ: أن يفتَحَ له بابَ الدُّعاءِ باللَّجَإِ والافتِقارِ إلى اللَّهِ عزَّ وجَلَّ بالسَّلامةِ والنَّجا، ويَهبَ له الصَّمتَ إلَّا بما للهِ فيه رضا، ولدينِه فيه صلاحٌ، وأن يكونَ حافِظًا للسانِه، عارفًا بأهلِ زمانِه، مقبِلًا على شأنِه، قد ترك الخوضَ والكلامَ فيما لا يعنيه، والمسألةَ والإخبارَ بما لعَلَّه أن يكونَ فيه هلاكُه، لا يحِبُّ إلَّا للهِ، ولا يبغِضُ إلَّا للهِ؛ فإنَّ هذه الفِتَنَ والأهواءَ قد فضَحَت خَلقًا كثيرًا، وكَشَفت أستارَهم عن أحوالٍ قبيحةٍ؛ فإنَّ

---

[1] (ربيعُ الأبرار) للزَّمخشريِّ.
[2] (حِليةُ الأولياءِ) لأبي نَعيمٍ.

أصونَ النَّاسِ لنفسِه أحفَظُهم للسانِه، وأشغَلُهم بدينِه، وأترَكُهم لِما لا يَعنيه).[1]

وَخيرُ نصيحةٍ قالَها عطاءُ بنُ أبي رَباح: (يا بَني أخي، إنَّ مَن كان قَبْلَكم كانوا يَكرَهونَ فُضولَ الكلامِ، وكانوا يَعُدُّونَ فُضولَ الكلامِ ما عدا كِتابَ اللَّهِ أن تقرَأَه، أو تأمُرَ بمعروفٍ، أو تنهى عن مُنكَرٍ، أو تنطِقَ بحاجتِك في معيشتِك التي لا بُدَّ لك منها، أتُنكِرون إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ [الانفطار: ١١]، عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ [ق: ١٧] ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق: ١٨] ؟ أمَا يستحي أحَدُكم أنْ لو نُشِرَت عليه صحيفتُه التي أملى صَدْرَ نهارِه كان أكثَرُ ما فيها ليس من أمرِ دينِه ولا دُنياه).[2]

ومِن النُّصوصِ مَا يبيّنُ لكَ حِرصَ السَّلفِ علَى مثلِ هذهِ الأمورِ.

فعن الأوزاعيّ قال: كَتَب إلينا عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمه اللَّهُ برسالةٍ لم يحفَظْها غيري وغيرُ مكحولٍ: (أمَّا بعدُ، فإنَّه مَن أكثَرَ

---

[1] (الإبانةُ الكُبرى)
[2] (الصَّمتُ) لابنِ أبِي الدُّنيا.

ذِكرَ الموتِ رَضِيَ من الدُّنيا باليسيرِ، ومَن عَدَّ كَلامَه مِن عَمَلِه قَلَّ كلامُه فيما لا ينفَعُه).[1]

والمُؤمِنُ لا بُدَّ لهُ أن يتميَّزَ عَن غيرِه في التَّكلُّم، فإنْ كانَ كلامُه لهُ تكلَّم وإنْ كَانَ عليهِ أَمسَك.

وعن إبراهيمَ التَّيميّ، قال: (المُؤمِنُ إذا أراد أن يتكَلَّمَ نَظَر؛ فإن كان كلامُه له تكَلَّمَ، وإن كان عليه أمسَكَ عنه، والفاجِرُ إنَّما لسانُه رِسْلًا رِسْلًا).[2]

وَمِمَّا ذُكِر في هَذا البابِ، هَذا النَّصُّ:

وقال بِشرٌ الحافي: (كان المُعافى صاحِبَ دُنيا واسِعةٍ، وضِياعٍ كثيرةٍ، قال مرَّةً رجُلٌ: ما أشَدَّ البَرْدَ اليومَ! فالتَفَت إليه المُعافى، وقال: أستَدْفَأْتَ الآنَ؟! لو سكَتَّ لكان خيرًا لك).[3]

وعن أبي بَكرٍ محمَّدِ بنِ القاسِمِ الشَّهْرَزُوريّ قال: (كان شيخُنا أبو إسحاقَ إذا أخطأ أحدٌ بَيْنَ يدَيه، قال: أيُّ سَكتةٍ فاتَتْك؟!).[4]

---

[1] (الصَّمت) لابنِ أبي الدُّنيا.
[2] (الصَّمت) لابنِ أبي الدُّنيا.
[3] (سِيَر أعلامِ النُّبلاءِ) للذَّهبيّ.
[4] (سِيَر أعلامِ النُّبلاءِ) للذَّهبيّ.

وَقولُه: (أيُّ سَكتةٍ فاتَتْك؟!). يدلُّكَ عَلى حِرصهمُ الشَّديدِ علَى الصَّمتِ.

فالصَّمتُ سِمةٌ يُحفَظُ بِها اللِّسانُ عمَّا لَا يليقُ، وَتزيدُ فِي حكمَةِ المَرءِ بينَ الخَلقِ، وَبِه يُدرَكُ أنَّ كثيرَ الكلامَ لَا خيرَ فيهِ إلَّا ما اختُصَّ بالخيرِ، وأنَّ قليلَهُ مَا دلَّ خيرٌ مِن كثيرِهِ مَا لَا يُفهَمُ ولَا يَدُلُّ.

وَكمَا قِيلَ: "مَن أكثَرَ مِن شَيءٍ عُرِفَ بِه"

فَلأنْ يُقالُ لَكَ: لِمَ لَا تُشاركُنا بالكلامِ، خَيرٌ مِن أنْ يُقَالَ عَنك: فُلانٌ يُكثِرُ مِن الكَلام.

وَاعلَمْ _باركَ اللهُ فيكَ_ أنَّكَ فِي هذهِ الدُّنيا زائرٌ، والزَّائرُ مَهمَا طالَت مدَّةُ زيارتِه سَيرحَل!

فَاصنَعْ فِي مدَّةِ زيارَتِكَ مَا تودُّ أنْ يكونَ فِي مَا بعدَ رَحيلِكَ.

قَال الشَّاعرُ:

إن كنتَ تبغي الذي أصبَحْتَ تُظهِرُه

فاحفَظْ لِسانَك واخْشَ القالَ والقِيلا

ما بالُ عبدٍ سِهامُ الموتِ تَرشُقُه

يكونُ عن ربِّه بالنَّاسِ مَشغولَا

وَقالَ غيرُه:

لسانُ الفتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ

فلم يَبْقَ إلَّا صُورةُ اللَّحمِ والدَّمِ

وكائِنْ ترى من ساكِتٍ لك مُعجِبٍ

زيادتُهُ أو نقصُه في التَّكَلُّمِ

وَقالَ غيرُه:

عوِّدْ لِسانَك قِلَّةَ اللَّفظِ واحفَظْ كَلامَك أيَّما حِفظِ

إيَّاك أن تَعِظَ الرِّجالَ وقَدْ أصبَحْتَ محتاجًا إلى الوَعْظِ

...

خِتامًا:

لَا يكونُ المَرءُ حَافِظًا لِلِسانِه مَا لَم يَكُن مُكثرًا مِن ذكرِ رَبِّه، وَكيفَ لِعاقلٍ يُدرِكُ عِظَمَ الثَّوابِ في ذكرِ رَبِّهِ وَلا يُباشِرُ بِذلكَ؟

كيفَ لِامرئٍ عَرف أنَّ كثرةَ كلامِهِ فِي أُمورٍ تَحتاجُ إلَى كُليمَاتٍ وُربَّما احتَاجَتْ إلى كلمةٍ واحدةٍ، كَيف لهُ أنْ يُخرِجَ مِن فِيهِ مَا ليسَ بِفائدة؟

وَقد صدَق القائلُ حِينمَا قَال: (إذا تَكَلَّمتَ بِكَلمةٍ فاعتبرْها قبلَ أنْ تتكلَّمَ بها، فإنّك مالِكُها مالم تُخْرِجْهَا مِن فيكَ، فإذا أخرجْتَهَا مَلَكَتْكَ فتَصِيرُ أسيراً لهَا).

وَكُن كَمَن قَالَ: (أَسْمَعُ فَأَعْلَمُ، وأَسْكُتُ فَأَسْلَمُ).

وَلَا تَكُن كَمَن قِيلَ فِيه: (تَكلَّمَ فِي مَا لَا يعْلمُ وأكثَرَ، فاتُّهِمَ فِي مَا يَعلَمُ أكْثَره).

وَقد قيلَ: (مَنْ قَالَ ما لَا يَنْبَغِي، سَمِعَ مَا لَا يَشْتَهِي).

وَكُن مُنصفًا فِي كلامِكَ، لا تكلَّمْ فِي مَا لا يَعنيكَ تَسلَم، ولَا تَسكُتْ فِي مَا عَلِمْتَ فَتندَم، وَقدْ قيلَ: (الكَلَامُ فِيْما يَعْنِيْكَ خَيرٌ مِنَ

السُّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ، والسُّكُوتُ عَمَّا لَا يَعْنِيك خَيرٌ مِنَ الكَلَامِ فِيْما يَضُرُّكَ).

والخَيرُ كلُّ الخَيرِ فِي مَن عَرِفَ مَتَى يُباشِرُ بالكلَامِ، وَمتى يَصمُتُ.

وَقد قيلَ: (رُبَّ منطقٍ صَدَّع جَمْعاً، وسُكُوتٍ شَعَبَ صَدْعَاً).

وإيَّاكَ أنْ تتكلَّمَ فِي أمورٍ عامَّةٍ لِتُضبطَها، وأنتَ عاجزٌ عَنْ ضبطِ عُضوٍ صَغيرٍ فِي فِيكَ.

وَقَد قِيلَ: (كُنْ أَخْرَسَ عَاقِلاً وَلَا تَكُنْ نَطُوْقَاً جَاهِلاً، وَلْأَنْ يَسِيْلُ لُعَابُكَ عَلَى صَدْرِكَ وَأَنْتَ كَافٌّ اللِّسَانِ عَمَّا لَا يَعْنِيْكَ، أَجْمَلُ بِكَ وَأَحْسَنُ مِنْ أَنْ تَجْلِسَ إِلَى قَوْمٍ فَتَنْطِقَ بِمَا لَا يَعْنِيْكَ).

....

أسألُ اللهَ _سبحانَهُ وَتعالَى_ أنْ يكونَ هَذا العملُ نافِعًا يُنتَفَعُ بِه، وأسألُهُ تَعالى الأجرَ والمَثوبةَ إنَّهُ جوادٌ كَريمٌ.

انْتَهيتُ من كتابتِه _بحولِ اللهِ وقوَّتِه_

فِي ١٤٤٥/٥/٤

الفَهرس

البابُ الأوَّلُ .....(٥)

الثَّرثرةُ .....(٦)

التَّفيهُق .....(٩)

الغَضَب .....(١٣)

الشَّتائمُ .....(١٧)

التَّعالُم .....(٢٣)

الجِدالُ والمِراءُ .....(٣٠)

الهَمزُ واللَّمزُ .....(٣٧)

رَفعُ الصَّوتِ .....(٤٣)

البابُ الثَّاني .....(٤٨)

الإنصاتُ .....(٤٩)

البشاشةُ فِي أثناءِ الكلامِ .....(٥٧)

الصَّمتُ .....(٦٥)

التَّغافلُ .....(٧٣)

حِفظُ اللِّسانِ .....(٨٢)

خِتامًا .....(٩٢)